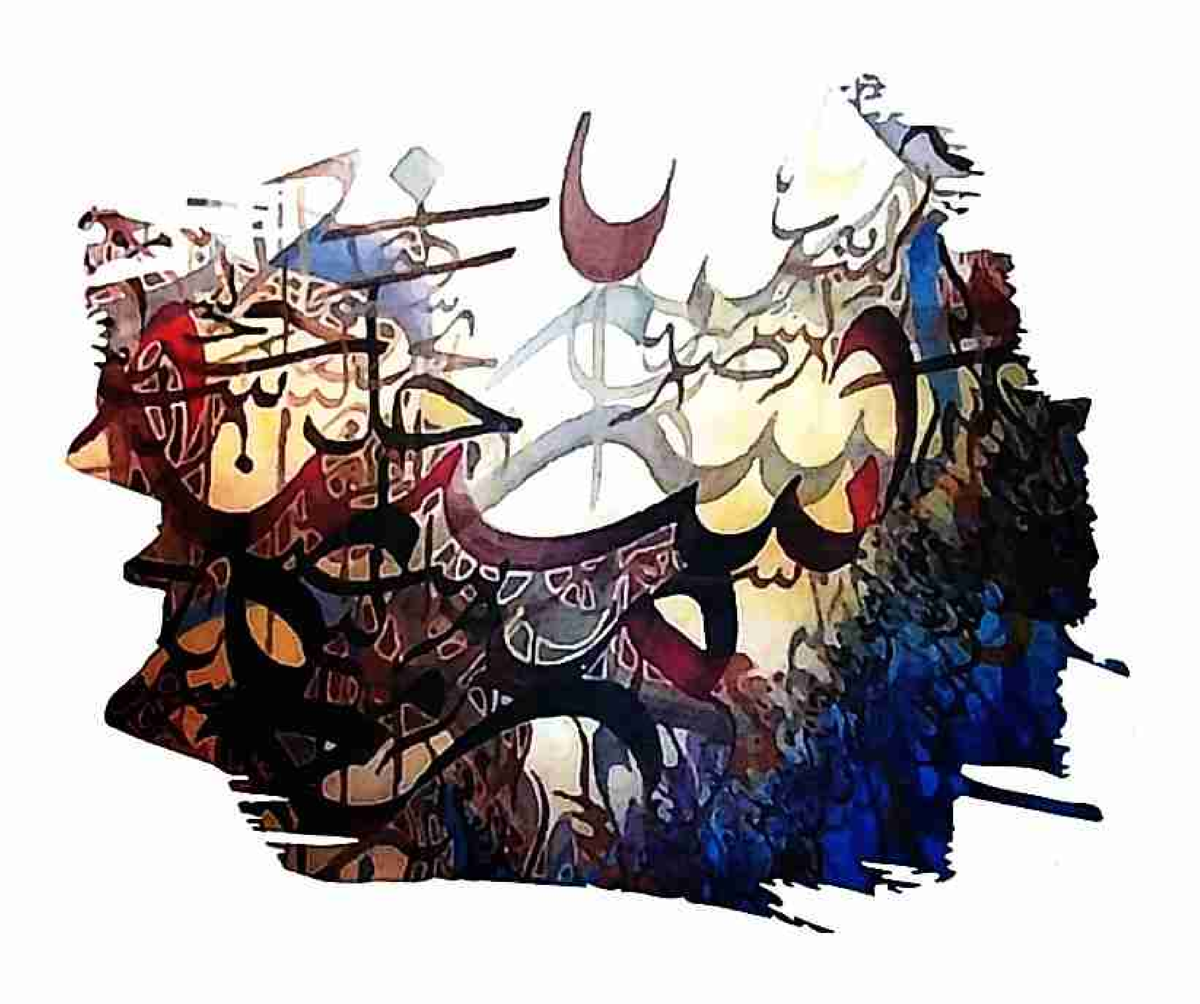
أ.د. عماد الدين خليل



آيـــات قـــرآنيـــة تطلُّ على العصر



آيات قرآنية
تطلُّ على العصر

• الموضوع: دراسات إسلامية
• العنوان: آيات قرآنية تطل على العصر
• تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

ISBN 978-614-415-301-7



• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت
• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 232 / الوزن: 300 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

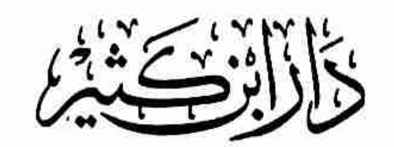
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

أ.د. عماد الدين خليل

آيـــات قــرآنيـة
تطلُّ على العصر










الإهداء

إلى زوجتي الغالية رواء...

لقد وقفتِ إلى جانبي، وصبرتِ عليَّ وأنا معتكف في مكتبي أقرأ وأكتب على مدى خمسين عاماً... مهيِّئةً لي كل أسباب التفرّغ... لم أركِ تشتكين أو تتألمين مرةً واحدةً!!

فيا الله على هذا الصبر وهذا الوفاء الجميل!... أفلا أرّد على دَينك الكبير الذي طوّقت به عنقي بإهدائكِ واحداً من مؤلفاتي التي أعنتني على إنجازها... يا أعزّ زوجة وأنبل رفيق؟!






تقديم

في عصر السرعة، يصبح فن المقال القصير ذي الصفحة الواحدة والصفحتين، ضرورةً من الضرورات، خاصةً إذا تذكرنا أن الفكرة الواحدة قد تعالج بكتاب كامل ذي أبواب وفصول، وقد تضغط لكي تصل إلى هدفها في صفحة أو صفحتين...

والمسألة أولاً وأخيراً مسألة قدرة الكاتب على الإيجاز، وعلى تقديم شبكة الأفكار في أضيق مساحة ممكنة...

وهذا الذي يجده القارئ بين يديه هو الكتاب الثاني عشر مما أنجزته عبر خمسين عاماً في فن المقال... ولكنه هذه المرة يختلف عن كتب المقالات التي سبقته... إنه من بدئه حتى منتهاه يتمركز في كتاب الله... ويتعامل مع آياته البيّنات، تلك التي تؤكد قيماً ومواقف وملامح أصيلةً في بنية هذا الدين، وتعكس رؤية معاصرة للمفاهيم القرآنية، التي أريد لها أن تكسر حواجز التاريخ وتطلّ على كلّ عصر...

ولهذا اخترت له عنوان **(آيات قرآنية تطلّ على العصر)**... ليس - أبداً - بمعنى أن هناك بالمقابل آيات أخرى لا تلامس هموم العصر وتحدياته... وإنما لأنني عبر قراءاتي المتواصلة في كتاب الله اخترت هذه الآيات من بين العشرات والمئات والألوف... وإلّا فإن

كتاب الله كله، من بدئه حتى منتهاه، يطلّ على العصر وعلى كل عصر، متجاوزاً مقولات الجغرافيا والتاريخ...

وهو ليس تفسيراً لكتاب الله... وحاشاه... فأنا لا أدّعي القدرة على هذا العمل حتى في حدوده الدنيا، وهو ليس من اختصاصي... وإنما هو تعبير عن طريقة تعامل ملايين الناس مع كتاب الله... فمن حق كل مسلم في هذا العالم أن يقرأ في كتاب الله، وأن يفهم منه ما ينطبع في عقله ووجدانه، وأن ينقل هذا للآخرين لكي يعينهم على التدبّر في آيات الله المعجزة، التي لا تنقضي عجائبها ولا تخلق على كثرة الردّ... إنها في حقيقة الأمر مقاربة وليست تفسيراً...

ففي هذا الدين ليس ثمة إكليروسية تقصر حق فهم النصّ الديني والتعامل معه على عدد محدود من رجال الدين... وإنما هو دين مفتوح... ينطوي كتابه على طبقات من المعاني التي ينبني بعضها على بعض، ويقوم بعضها على بعض... ومن حق المسلمين جميعاً، وقد أُمروا بقراءته يوماً بيوم، أن يفهموا منه ما يقدرون على فهمه، فإن لهم بذلك أجراً... لكن فهمهم هذا ليس ملزماً للآخرين بأي شكل من الأشكال...

مهما يكن من أمر، فإنني إذ أضع هذا الكتاب بين يدي القارئ مبتغياً أجره عند الله... أسأل الله تعالى أن يثيبني عليه إن سدّدت وقاربت، وأن يعفوَ عني إن قصّرت أو اخطأت... وإنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى... وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام...

الموصل في ٢٠١٣/٥/٥م

١

القرآن يكسر حاجز الزمن

في مجمل سور القرآن الكريم يجد الإنسان نفسه إزاء نقلة مفاجئة من مجريات الحياة الدنيا إلى اليوم الآخر... إلى القيامة والحشر والبعث والحساب والجنة والنار!!

إن القرآن يكسر حاجز الزمن وينتقل في السورة الواحدة، بل في المقطع الواحد، بين الماضي والحاضر والمستقبل، وكأنه يضعنا دائماً في اللحظة الراهنة، حيث تزول الفواصل بين الأزمان، ولا يتبقى سوى الحقائق التي تعلو على نسبيات الزمن، بما تملكه من كثافة ومصداقية ودوام وحضور مؤكد.

ولكن يبقى دائماً، عبر هذه النقلات، ذلك الإحساس اليقيني بأن الحياة الحقيقية هي هذه التي ينفتح عليها المنظور القرآني بين لحظة وأخرى... وأنها الشيء الوحيد الباقي...

ما الذي يعنيه ذلك؟!

إن الحياة الدنيا... الحياة الفانية المنصرمة... لا تعدو أن تكون صورة مسخاً... صورة لا تنطوي على أكثر من بعدَيْن: الطول والعرض... وأننا نعيشها كحلم... كخيال عابر... ممثلون يتحركون

على شاشة الزمن... لحظات من عمر الزمن... ثم ما يلبثون أن يرحلوا ويغادروا المكان، تاركين الشاشة للممثلين الجدد الذين سيؤدون الدور نفسه، ويرحلون هم الآخرون!!

ما الذي يعنيه ذلك؟

إن الحياة الأخرى هي الحياة الحقيقية.. بطولها وعرضها وعمقها... بديمومتها وخلودها... بتحققها بكل صنوف الإشباع الروحي والحسّي على السواء... وإنها هي الحياة الخالدة الأبدية الدائمة، التي لا تقطّع فيها ولا انصرام: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لو كانوا يعلمون... وتجيء هذه النقلات المفاجئة في كتاب الله إلى ذلك اليوم لكي تهز الضمائر والعقول، وتحرّك الأفئدة، لعلّ أصحابها يفيئون من حالة الجهل المطبق، الذي يخيّل لهم أن الحياة الدنيا هي الحياة، إلى حالة الوعي العميق بحقيقة هذه الحياة التي سميت مجازاً بالحياة، ولكنها أُردفت بكلمة (الدنيا)... أي السفلى، وأن الحياة الحقيقية هي هناك!!

حيثما تلفتنا في كتاب الله وجدنا أنفسنا ننتقل فجأة من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن عذاباتها التي لا تهدأ ولا تكّف، إلى هناء الآخرة ونعيمها... ومن تقطّعها وزوالها إلى دوام الآخرة وامتدادها وأبديتها...

والقرآن الكريم وهو يعرض للفارق الهائل... الهائل...

بين الحياتين... ينسج آياته ومقاطعة وفق مستويات ثلاثة...

فأما في أوّلها، فهو أن الحياة إن هي إلّا ساعة من نهار... أو لقاء عابر في حفل للتعارف، لا يكاد أحد فيه يحفظ حتى ملامح الوجوه التي تعرّف عليها... وهو يسميها حيناً آخر بيوم واحد أو عشرة أيام... وهي في كل الأحوال لحظات من عمر الزمن، ما تلبث أن تغيب بمن عليها وما فيها في طيات الوجود... وأن يوم القيامة في المقابل قريب قريب، كلمح البصر أو هو أقرب، هنالك حيث تكون النقلة الكبرى من الفاني إلى الخالد... ومن المنصرم إلى الدائم... ومن الزائل إلى الأبدي الموصول... وأن الساعة تجيء لسرعتها المدهشة بغتةً، فلا يستطيع أحد كائناً من كان، ولا تقدر قوّة في الأرض على تغيير موعدها دقيقةً، بل لحظةً واحدةً، هنالك حيث تقفل أبواب العودة ولا ينفع ندم:

﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]،

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]،

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]،

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]،

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]،

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]،

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]،

﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]،

وأما في المستوى الثاني، فهو ينفذ هذه النقلات السريعة المتداخلة بين حديثه عن شؤون الحياة الدنيا وتحوّله فجأة إلى الآخرة... فيما يكاد يغطي معظم مساحات القرآن الكريم...

وأما في المستوى الثالث، فهو ينبّه إلى حقيقة نسبية الزمن وتفاوته الهائل بين الزمن الأرضي والزمن الكوني...

فأوّلهما، يقوم على الدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين المنضغطة، السريعة العابرة والمصممة لمطالب الحياة الدنيا...

وثانيهما، زمن ممتدّ حيث يصير اليوم الواحد كألف سنة مما نعدّ، بل حيث يصير ثمانية عشر مليوناً ومائتين وخمسين يوماً أرضياً...

في الأولى يقول: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦]،

وفي الثانية يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]،

ويقول: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ١ ـ ٧].

فيا أيها الغافلون!... انتبهوا... قبل أن تفلت من أيديكم اللحظات التي منحكم الله إياها للاختبار!! ويا أيها السادرون!... تحركوا... قبل أن يجيء اليوم الذي لا تقدرون فيه على الحركة... ويا أيها السكارى!.. أفيقوا قبل أن تقع الواقعة، فلا يفيدكم ندمٌ ولا توسّلٌ ولا رجاء... ويا أيها الملتصقون بالحياة الدنيا!...

بترابها... ودخانها... وطينها... ولُزوجتها... بإغراءاتها السريعة... ولذاتها المنقضية... ونداءاتها الفارغة... اعلموا أنكم تمارسون تجارةً خاسرةً، ولعبةً فاشلةً، وصفقةً خائبة!!

لأنكم آثرتم العاجلة على الآخرة، وبعتم الفرصة الأبدية باللحظة الفانية... فخسرتم كل شيء!!

وها هو كتاب الله يختصر المسألة المحزنة كلها بكلماته الموجزة والمعجزة في الوقت نفسه:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١]...

تحبون هذه الدنيا التي لا تعدو أن تكون هباءة في عمر الكون المديد... وتذرون الآخرة في عمقها وامتدادها وخلودها ودوامها... فأي موقف معكوس هو هذا الموقف، الذي لا يعكس ذرة من ذكاء؟!.

ونتذكر في ختام هذا المقال تحذير مؤمن آل فرعون لهذا الطاغية ولعبّاده المعجبين به، المسبحين بحمده:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤١ـ ٤٤].

ولكنه الرّان الذي يغلف العقول والقلوب، ويصيبها بالصدأ... فلا تعود تفرّق بين الأبيض والأسود... ولا بين الدنيا والآخرة... ولا بين الجنة والنار!!

٢

الدنيا والآخرة... معاً ودائماً

الدنيا والآخرة... معاً ودائماً...

ليس ثمة انفصال أو ثنائية أو اصطراع بين الطرفين، كما هو الحال في كل المذاهب الوضعية والأديان المحرّفة... وإنما هو التواؤم والتكامل والتصالح والانسجام... يعبّر عنها الشعار الرائع الذي طرحه الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)**.

ولقد جاء هذا الدين بمشروعه الحضاري لكي يبني الدنيا ويعمرها.. من أجل ماذا؟ من أجل أن تكون بيئة صالحة لعبادة الله، والعبور إلى الحياة الأبدية الخالدة، بعد يوم الحساب...

لا اصطراع ولا تناقض بين الطرفين...

ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقولها بوضوح حاسم: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فاستطاع ألّا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجرٌ**»... إنه الأمر النبوي بإعمار الدنيا، وزراعتها، وتزيينها حتى لحظة النفخ في الصور...

فنحن أمةٌ قد أريد لها منذ البدء أن تنسج مشروعها الحضاري

في قلب الحياة الدنيا، حيث وجدت نفسها في مثلث الفاعلية الحضارية من خلال مفاهيم التسخير والاستخلاف والاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية): ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فهناك حشد من الآيات والمقاطع القرآنية تؤكد على مفهوم تسخير العالم لكي يكون بمواصفاته المرسومة بعناية مدهشة بيئة مناسبة للفعل الحضاري.

يقابلها حشد آخر من الآيات يؤكد على مفهوم الاستخلاف، الذي أعطى هذه الأمة مهمة قيادة البشرية، والشهادة على مسيرها ومصيرها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

عالم قد سُخِّر لنا، نحن الذين استُخلفنا عليه، من أجل أن نبنيه ونعمره، لكي يكون بيئة مناسبةً لعبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧].

وهي ليست العبادة المحددة بممارسات شعائرية مؤقتة في الزمن والمكان، وإنما هي عبادة حضارية، حيث يصير كل فعل إيجابي يمارسه الإنسان عبادة يتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى.

الدنيا والآخرة معاً... ودائماً...

وعندما يكون الأمر كذلك تجيء القيادة العادلة التي تحكم العالم... القيادة التي لا تريد علوّاً في الأرض ولا فساداً... لأنها، وهي تسوس الدنيا، تضع الآخرة نصب عينيها... فلا يشذُّ بها عمل،

ولا ينحرف بها طريق... ولا تلتوي بها إغراءات القوة فتجعلها تضرب خصومها بغير ما رحمة، كما تفعل القيادات التي التصقت بالحياة الدنيا وألغت الآخرة من حسابها... وكما فعلت أمريكا عندما ضربت هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين بقنبلتين ذريتين أتت على المدينتين بمن فيهما من القواعد... وكما ضربت أفغانستان والعراق بأطنان من اليورانيوم المخصب، الذي لا تزال ذراري الأفغانيين والعراقيين تعاني من إشعاعاته، فيموت عشرات الألوف في السنة الواحدة... بل قيادة تلتزم باحترام إنسانية الإنسان، ومنظومة الضوابط الدينية والخلقية؛ لأنها وهي تتحرك وتنتشر في الأرض؛ تظل أنظارها مرفوعة دوماً صوب الآخرة، باتجاه يوم الحساب... ولذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، خليفة رسول الله (ﷺ) يصدر أوامره إلى قادته الميدانيين ألّا يقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، وألّا يذبحوا شاة ولا بقرة، ولا يقتلعوا شجرةً أو زرعاً... وأنهم سيمرون على رجال دين يتعبدون في صوامعهم، فليدَعوهم وعبادتهم دون أن يمسّوهم بأذى...

إنه الفارق الكبير بين قيادتين... بل بين حضارتين... نسيت إحداهما الآخرة فعاثت فساداً في الأرض، وتعلقت ثانيتهما بالآخرة فأعملت معايير العدل في كل صغيرة وكبيرة في ممارساتها السياسية والعسكرية...

ولذا كان لا بدّ للعالم من رجال كهؤلاء، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً... ولئن كانت القوة المفرطة للدول الكبرى التي رفضت الإيمان بالآخرة، قد حجبت هذا

الحق عن الأمة الإسلامية، فحرمت بذلك نفسها، قبل هذه الأمة، من الخير العميم، الذي كان يمكن أن تنعم به البشرية تحت ظلال قيادة كهذه... فإن هذا الأمر لن يدوم طويلاً، لأنه مناقض لقوانين الحركة التاريخية المؤكدة في كتاب الله:

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]،

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

فالذي يحكم هذا العالم في نهاية التحليل وبدئه، ليس بوش، ولا بريجينيف، ولا ماوتسي تونغ، ولا حسني مبارك، أو القذافي، أو زين العابدين... إنما هو الله جلّ في علاه...



٣

الشورى... والعدل

ليس من عجب أن تأتي هذه الآيات العشر التي تندّد بالظلم، وتحكي عن المصير الأسود للظالمين يوم الحساب في سورة (الشورى)... ذلك أن ثمة علاقة جدلية حميمة بين (الشورى) ومعادلها الموضوعي (العدل)، وبين غياب الشورى ومعادله الموضوعي (الظلم)... وليس ثمة بين الحالتين أي هامش على الإطلاق... فإما هذا وإما ذاك... ذلك أن غياب الشورى يعني بالضرورة اقتراف الظلم وإشاعته بين الحاكم والمحكوم...

وبعيداً عن الجدل القائم بين الكتّاب والدعاة الإسلاميين بخصوص (الديمقراطية) قبولاً أو رفضاً... فإن الأهداف النهائية للممارسة هي التي تقرّر في آخر الأمر القبول أو الرفض... والشورى قبل الديمقراطية، ومعها، وبعدها، تتكفل بأقصى درجات الحرية السياسية والعدل الاجتماعي، فيما لا تبقى معه أية حاجة لقبول مصطلحات مستوردة من خارج دائرة القاموس الإسلامي الأصيل.

إن القرآن الكريم يسمي سورة بكاملها (الشورى)، ثم هو يربط في

آيات عشر من هذه السورة بين فكرة الشورى وبين الممارسة السياسية والاجتماعية في التعامل معها أخذاً وردّاً... ولنقرأ هذه الآيات:

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٣٧ ـ ٤٦].

إنها الرؤية الشمولية لمفاهيم العدل... الرؤية التي ترفض التجزيء، وتمتد إلى الخبرة في بُعدها الزمني، ثم تمضي إلى ما وراء الزمن الراهن لكي تلاحق الظلم وتنتصر للمظلومين في يوم الحساب... الرؤية التي تجعل عقاب السيئة بسيئة مثلها، ولكنها تتجاوز ذلك إلى حالة العفو والإصلاح بين الناس، فيما قد يأتي بنتائج أكثر فاعلية في حياة الناس... الرؤية التي ترفض إدارة الخدّ الأيسر لمن يظلم الناس، لكي يتلقَّوا صفعات أخرى، وتدعو ـ بدلاً من ذلك ـ إلى اتخاذ موقف إيجابي إزاء الظالم بالردّ على بغيه

والانتصار عليه... الرؤية التي تعلن بأن الله ﷻ، الحاكم الأوحد لهذا العالم، لا يحب الظالمين، فكأنه ﷻ يقول إنه ما دام قد أعلن غضبه على الظالمين؛ فسوف يلقَوْن منه ما يوازي جرائمهم التي اقترفوها... الرؤية التي تدعو للانتصار بعد الظلم، ولكنها ترفض، وبشكل قاطع البغي في الأرض بغير الحق، وتتوعد من يمارسه بالعذاب الأليم، حيث يتمنى الظالم يومها أن يجد ثغرة، أو ثقباً صغيراً يُرَدّ من خلاله إلى الحياة الدنيا، لكي يعمل غير الذي كان يعمل ولا من مجيب... وها هي نار جهنم تنتظرهم في نهاية المطاف حيث يُعرضون عليها وقد خشعت أبصارهم من الذل، وخسروا أهليهم، وليس ثمة من ينقذهم، كما كان الحال في الحياة الدنيا، يوم أن كانوا يتترّسون بالعبّاد والمعجبين فيزدادون ظلماً وطغياناً... الرؤية التي تردّ طغيان هؤلاء وظلمهم إلى إرادة الله، الذي علم ما في سرائرهم، فساقهم إلى هذا المصير المفجع الرهيب... حيث لا أهل ولا ولد... ولا تابعين ولا أنصاراً... وحيث البقاء الأبدي في العذاب المقيم.

أي تنديد هذا بأولئك الذين يضعون الشورى وراء ظهورهم، ويستبدلونها بالتفرّد والظلم والطغيان؟!. تنديد يطوي جناحيه على الآني والدائم... والموقوت والأبدي... والدنيا والآخرة... ويمسك بتلابيب الظالمين فلا يمنحهم الفرصة على الإطلاق للإفلات من العقاب؟

ومن أجل ذلك تشكلت، وبصيغ مدهشة، حالة الحرية، والالتزام بالشورى في بُعديها السياسي والاجتماعي في عصر الراشدين (رضي الله عنهم)، أولئك الذين عرفوا كيف ينفذون مفاهيم هذا الدين في

واقع الحياة... وكيف كانت خطاباتهم التي كانوا يرفعونها قبالة الجماهير لحظة تسلُّمهم المسؤولية، بمثابة تأكيدات متواصلة على هذا الالتزام المدهش، وتنفيذ مطالبه في واقع الحياة...

بدءاً من أن أحداً منهم لم يولّ من بعده ابناً أو قريباً، وانتهاء بحشود هائلة من الممارسات السياسية والاجتماعية مع أبناء أمتهم، لا يتسع مقال موجز كهذا للخوض فيها، لشدة ما يعرفها الناس قاصيهم ودانيهم على السواء...

ويكفي أن نستمع لابن الخطاب (رضي الله عنه) وهو يقول بعد واقعة ضرب القبطي على يد ابن حاكم مصر عمرو بن العاص: **(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!)**.

ويكفي أن نسترجع مقولة الباحث الجزائري المعروف مالك بن نبي (رحمه الله) من أن الغرب إذا كان قد عرف ونفّذ ديمقراطية ذات وجه واحد؛ فنحن في ذلك التاريخ قد نفذنا ديمقراطية مركبة ذات وجهين... في الأولى: تسمح لأبناء أمتك بأن يعترضوا بحرية مطلقة على حكامهم... أما في الثانية: فتمضي خطوةً أخرى فتدفعهم دفعاً إلى الاعتراض وتغريهم به... فيما هو معروف من سياسات الراشدين وبعض الحكام المسلمين الذين ساروا على هديهم (رضي الله عنهم جميعاً).

فإما الشورى والعدل... وإما الطغيان والتفرّد والظلم... وليس ثمة أيما هامش على الإطلاق بين الحالتين...



٤

بين حضارتين

في الآية (١١) من سورة المجادلة يجد الإنسان نفسه قبالة آية تربط آداب السلوك في إحدى حلقاته، بقضية العلم والإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

ويتساءل المرء: ما علاقة آداب السلوك بالإيمان والعلم؟

والجواب: هو في هذا الفارق الجوهري الشامل الممتد، الذي يفصل بين حضارتين: الحضارة التي تفك ارتباطها بتعاليم السماء، وتلك التي ترتبط بها وتتلقى عنها.

ففي الأولى، تتشكل مفردات السلوك وآدابه من خلال تنامي الخبرة الاجتماعية عبر شبكة علاقاتها، ويكون لمفاهيم المنفعة البراغماتية وضروراتها دورٌ كبير في تشكّلها...

بينما في الثانية تنبني هذه المفردات والآداب على قاعدة متينة من الإيمان المستهدي بالعلم، فلا يكون ثمة للمنافع القريبة، والخبرة الارتجالية، أي دور في بنائها والالتزام بها.

وكثيراً ما انقلبت مفردات السلوك في ديار الغرب العلماني، أو المادي الكافر، رأساً على عقب ووجدت دائماً من علماء الأخلاق والفلاسفة من يبرّر هذا الانقلاب، لا بل يجعله ضرورةً من الضرورات الاجتماعية.

أما في الحالة الإسلامية، فإن المفردة الإيجابية تظل في موضعها، فيحترمها ويلتزم العمل بمطالبها المؤمنون كافة... أما المفردة السلبية، فهم يسعون جميعاً إلى تلافيها وإعلان الحرب عليها...

وثمة فارق كبير بين القيم السلوكية المتجذرة في الإيمان، وبينها وقد انفكت عن مطالبه ومقتضياته... وفارق كبير أيضاً بين القيم السلوكية التي لا يحرسها العلم ويسهر على حمايتها من التآكل، وبين تلك التي يقف العلم الجاد إلى جانبها ويحميها من العدوان.

وإذا كان الغربيون يلتزمون بمفردات السلوك بدوافع الخبرة المتنامية أو المنفعة داخل بلدانهم؛ فإنهم يضربون بها عرض الحائط عندما يتعاملون مع الشعوب الأخرى... بينما في ظلال الإسلام تظل هذه المفردات تحمل أهيمتها والتزامها داخل الأرض الإسلامية وخارجها سواء بسواء... فالحلال حلال هنا وهناك... والحرام حرامٍ هنا وهناك... إنها المعايير الإلهية الموضوعية العادلة والثابتة التي أُريد لها أن تحكم الحياة.

في المركزية الأوربية، التي انسحبت عبر العقود الأخيرة إلى أمريكا، يجد الغربي نفسه ابن الحضارة الأم... سيدة الحضارات في

هذا العالم... بدءاً من حضارة اليونان والرومان، وانتهاء بالحضارة الغربية المعاصرة... فيما خُيِّل له أنه سيد العالم، وأن من حقه أن يتعامل مع الشعوب الأخرى تعامل السادة مع العبيد... هنالك حيث يدوس بقدمه على كل مفردات السلوك التي عرفها في دياره...

لكنها في ديار الآخرين الأقل منه منزلةً؛ تغيب عن الساحة وتحلّ محلّها بدائل في غاية القبح والبشاعة... وقد انسلخت عن منظومة القيم الإنسانية والدينية والأخلاقية.

إن منطوق الباحث الأمريكي (هنتنكتن) هو هذا: إن الغرب إذا أراد أن يحتفظ بمركزه المتقدم في العالم إزاء الشعوب الأخرى، فعليه أن يجد شاخصاً يطلق عليه النار... وفي يوم ما كان الاتحاد السوفياتي هو هذا الشاخص، فلما زال الاتحاد السوفياتي، كان على الغرب أن يبحث عن شاخص بديل، وقد وجده في عالم الإسلام ودشّنه في لعبة (١١) أيلول وحرب افغانستان والعراق.

ومن قبل (هنتنكتن) شكل (هوبز) نظريته في القوة، وأن الدولة الكبرى إذا أرادت أن يحترمها الجميع؛ فعليها أن تتحقق بأقصى درجات القوة... أن تصبح (لوياثان)... هذا الحيوان البحري الأسطوري الهائل الذي يفترس كل من يقف في طريقه...

وجاء زعماء أمريكا بدءاً من (جونسون) و(نكسون) في حرب فيتنام، مروراً بـ (ريغان) في ملاحقة قضية حقوق الإنسان، وصولاً إلى (بوش) الأب والابن، في مطاردة الإرهاب، لكي ينفذوا هذه المفاهيم في سياساتهم وبرامج عملهم إزاء الشعوب المستضعفة...

فكيف إذن لا ترتبط مفردات السلوك في أصغر حلقاتها

وأكبرها بقضية الإيمان والعلم، في المنطوق الإسلامي... لكي تتشكل ـ بهذا ـ الحضارة العادلة السمحة التي تتعامل مع الجميع بالمعيار الإلهي الواحد، فلا تغريها القوة، فتندفع بها بعيداً في موازين الحكمة، كالذي شهده العالم عندما قامت أمريكا بضرب هيروشيما وناغازاكي بقنبلتيها الذّريتين، اللتين أتت بهما على هاتين المدينتين من القواعد؟ وهل تبيح القيادات الإسلامية، لو قدّر لها أن تتولى زمام العالم، أن تفعل عشر معشار هذا الذي فعلته أمريكا؟!



٥

دفتر الرصيد المفتوح

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

ها هي ذي كلمات الله ﷻ، توجز في آية واحدة ما يمنح المؤمن في هذا العالم إحساساً غامراً بالتوازن الفكري والنفسي، ويقيناً موغلاً بالجدوى وعدم الإحساس بأي قدر من العبثية والضياع.

إنها تطمئنه إلى أن كل شيء... كل صغيرة وكبيرة من أعماله وممارساته... من أفكاره وتصوّراته، من معطياته وخبراته العقلية والحسية، من كلماته وأفعاله... كل شيء على الإطلاق... من كل ما قدّمه في حياته الدنيا إن خيراً وإن شراً... وكل آثاره مهما دقت أو عظمت... إنما هي محصية عليه، ومدوّنة بتفاصيلها الكاملة في إمام مبين!!

يا الله!... أإلى هذا الحدّ من الضبط والمتابعة والإمساك بأفعال الإنسان وأقواله وتثبيتها في كتاب؟! أإلى هذا الحدّ تبلغ طمأنة الإنسان إلى أن كل شيء محسوب حسابه، ومحمي من التبعثر والضياع؟! أإلى هذا الحدّ تبلغ الملاحقة أن تكون عملاً إحصائياً محكماً ودقيقاً ومثبتاً في إمام مبين؟!

أي دين في الأرض... وأي مذهب يملك القدرة على هذه التغطية الدقيقة للجهد البشري وحمايته من التآكل والنسيان؟

أي دين أو مذهب في العالم يطمئن الإنسان، ويحذّره في الوقت نفسه، من أنه لن تفلت من الحساب، في يوم الحساب، مثقال ذرةٍ من خيرٍ أو شر... وأنه سيراها بأم عينيه حاضرةً قبالته بتفاصيلها الكاملة... حيث لا مبرّر للكلام وتضييع الوقت فيما لا جدوى منه. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

إنه دفتر الرصيد المفتوح، والذي لن يفلت منه أي رقم من الأرقام، حيث يوضع لحظةً بلحظة، ودقيقةً بدقيقة في حسابه، عبر خانة الإيجاب أو السلب... لكي يجعل من الإنسان مشروعاً مفتوحاً لتسجيل المزيد من أرقام الإيجاب وتضييق الخناق على أرقام الشرّ... والتحوّل بالتالي من محطة الإسلام... إلى الإيمان... إلى التقوى... إلى الإحسان... المحطة القمة التي يطمح لبلوغها كل مؤمن جاد في هذا العالم، فيسعى إلى تحويل حياته إلى عطاء دائم... إلى إبداع متجدّد... وإضافة حقيقية لمجرى الحياة البشرية... ملاحقاً في الوقت نفسه كل قوى الشرّ... والإعاقة... والإغراء... والإغواء... التي تريد سحبه إلى الأسفل...

إن هذا كلّه... إلى جانب ما تعكسه صفات الله المتفردة ﷻ، بدءاً بالوحدانية المطلقة، والحاكمية والربوبية... مروراً بالعلم والقدرة والرحمة... إلى آخره... يمنح المسلم الذي يفيء إلى خيمة

الله، من دون سائر الناس في العالم، أكثر الحالات النفسية توازناً وتوحّداً وائتماناً...

إنه الإيمان اليقيني بالإله الواحد، الذي لا شريك له، والذي يحكم الكون بقدراته المطلقة، والذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون... الإله الرحيم العادل... الإله الغفور الودود... الإله الجبار القادر... الإله القوي العزيز... الإله الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم...

فأي إحساس مترع بالثقة واليقين والأمل والتوحد والاطمئنان هو هذا الذي يحسّه المؤمن وهو يفيء إلى جلال الله، وقوته، وعدله، ورحمته، وودّه، وجبروته، وحسابه الذي لا يميل ولا يجور؟.

وأي دين أو مذهب يقول للإنسان يوم الحساب:

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

إن مقارنة هذه الوضعية البشرية الآمنة السعيدة المتوحدة المطمئنة الفاعلة، بوضعية الإنسان في المذاهب القلقة، الكئيبة، المشتتة، المبعثرة، وبضياعها المخيف... واعتقادها بلا جدوى الحياة، وعبثية الوجود الكوني... وانتهاء كل عمل أو خبرة أو عطاء إلى اللا شيء... سنجد أنفسنا مرةً أخرى بإزاء هذا الدين الذي منح الحياة البشرية مغزاها، والسعي البشري جدواه، والذي حصّن الإنسان من كل ما من شانه أن يقوده إلى التعاسة والنكد والشقاء...

وابتداء من عصور التراجيديات اليونانية، حيث يصير القدر عدوّاً شرساً للإنسان، يسعى للفتك به وتدمير مطامحه في صراع

غير متكافئ على الإطلاق، يخرج فيه الإنسان مندحراً مهزوماً... وانتهاء بعصور العبثية الغربية المعاصرة، التي تأخذ بخناق الإنسان، وتصوّر له الكون ساحة خالية من أي معنى ومن أي هدف... فما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى!!

وصولاً إلى اللحظات الراهنة حيث تعلن الفضائيات عن تزايد مخيف في نسب حالات الاكتئاب والهروب إلى المغيّبات المدمرة... وإلى الانتحار وقتل النفس... في أرقى الدول تمدّناً في العالم: أمريكا... اليابان... السويد... فإذا بها أرقام مخيفة... وهي تتصاعد بمعدلات مرعبة يوماً بعد يوم... فهناك في إحصائية عام (٢٠١٠م) عشرة بالمائة من الأمريكيين يعانون من داء الاكتئاب المركز الذي يقود بعضهم إلى الانتحار... وهنالك إعلان في اليابان عن تخصيص مبلغ ثلاثين مليار دولار ـ في ميزانية تلك السنة ـ لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار المتزايدة في الساحات اليابانية... والشيء نفسه يحدث في السويد، وفي غيرها من الدول المتقدمة تقنياً وخدمياً وعمرانياً، ولكنها التعيسة نفسياً وفكرياً ووجدانياً... لأنها باختصار شديد لم تفئ إلى الدين أو العقيدة التي تمنحها الأمل واليقين والسعادة والتوحد والائتمان الذاتي، كما يفعل الإسلام الذي وضع الإنسان في معادلة من الدرجة الرابعة لا يضيع فيها رقم أو يخرج عن الحساب النهائي... وإنما هو كل شيء مكتوب ومحسوب حسابه في عمل إحصائي مدهش... ومسجّل في إمام مبين!!



٦

البانوراما القرآنية

القرآن الكريم ينطوي على رؤية شمولية تلّم أطراف القضية أو الظاهرة جميعاً... إنه يفرش بانورامياً تفاصيل الحالة أمام القرّاء بجانبيها معاً، فلا يميل ـ وحاشاه ـ حول جانب دون الآخر ولا يسلط الضوء على جانب دون الآخر... بل يضعها جميعاً تحت إضاءته الباهرة... ويكشف عن سننها ونواميسها وخفاياها.

وتطبيقاً على مبدأيْ (الصراع) و(التوافق) في مسألة الخلق والحركة الكونية، نجده يولي المبدأين معاً اهتمامه، فيقدم في نهاية الأمر التصوّر الموضوعي العادل للظاهرة، والذي عجزت عن تقديمه كل المذاهب والمعطيات البشرية الوضعية، التي أخذت بمبدأ إما هذا أو ذاك... إما الصراع وإما التوافق.. فضلّت الطريق...

ها هنا... فإن كتاب الله يحكي عن الصراع، من خلال عرضه للانفجار الكوني العظيم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

هذا الانفجار الذي لم يُكتشف إلا بعد أربعةَ عشرَ قرناً من

نزول القرآن، فيما أطلق عليه كبار الفيزيائيين وعلماء الكوزمولوجي اسم الـ Big Bang. ومن عجب أن الآية المذكورة تخاطب الذين كفروا... فكأنها ترهص بأن هؤلاء هم الذين سيكتشفون هذا السرّ الكبير من أسرار الخلق...

لكن القرآن الكريم لا يقف عند هذا الجانب وحده... وإنما يمضي لكي يتحدث عن الجانب الآخر: التوافق والتجاذب الكوني عبر جملة من الآيات، هذه إحداها: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

ثم يعود إلى الصراع والانشقاق والارتطام وهو يتحدث عن يوم القيامة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٤]، ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٥]، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٥]، ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١ ـ ٣].

إن الكون في المنطوق القرآني، والعلمي معاً، ينطوي على اثنتين: الكينونة والصيرورة.. فالله سبحانه وتعالى لا يكتفي بأن يقول للظواهر والكائنات والأشياء: (كن فتكون)، وإنما يأمرها بأن تتحول وتصير من حال إلى حال لأمر يريده جل شأنه: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

بل إن القرآن كله ينطوي على الظاهرتين معاً: الكينونة والصيرورة... الثابت والمتحوّل... الدائم والمتطوّر...

ولعل هذا يعلمنا، ويخرس ألسنة السوء التي تكيد لهذا الدين وتتهم المنتمين إليه بالرجعية والجمود... ذلك أن هذا العرض القرآني للكون في حالتيه يجعل المسلم واحداً من أشد الناس تقدمية في هذا العالم، وأكثرهم حرصاً على التغيير والتجديد والتطور... مع وقوفه على أرض صلبة من الثوابت التي لا تتغير ولا تتبدل.

وبهذا يمسك بالخيط من وسطه، ويتحقق بالمعادلة التي عجزت كل المذاهب الوضعية عن التحقق بها، وهي حالة الالتزام بقيم الثبات والتطور معاً...

فها هم الغربيون ينفلت العقال من بين أيديهم، فيهرعون وراء التغيير والتبديل، ويضربون بالثوابت عرض الحائط... فما يلبثون أن يجدوا أنفسهم وقد انزلقت أقدامهم في مستنقعات التغيير والتطوير، فيعودون من حيث بدؤوا وبعد أن يكونوا قد ضيعوا على أنفسهم وعلى كل الذين ساروا على هديهم الجهد والزمن... وهذه المأساة تتضح في كل ما اكتشفوه من مبادئ ومذاهب، راح بعضها يضرب البعض الآخر ويخرجه من الساحة، لكي ما يلبث أن يحلّ محلّه ويتهيأ لاستقبال موجة مغايرة أخرى تفعل به ما فعله هو بمن سبقه.

فها هي ذي الشيوعية الحادة في جماعيتها تلغي الرأسمالية الحادة في فرديتها... وها هي ذي النازية الحادة في عرقيتها تلغي الشيوعية الحادة في أمميتها... وها هي ذي الوجودية الحادة في فرديتها تلغي الشيوعية الحادة في جماعيتها... وها هو العدل يلغي الحرية وهذه تلغي العدل... وها هي ذي البنيوية الحادة في اختراقها للنص تلغيها التفكيكية، وهذه تلغيها ما بعد التفكيكية... والسيميائية تكنسها ما بعد السيميائية... وحيناً يصبح المؤلف هو نقطة الارتكاز في التعامل النقدي مع النص الأدبي، وحيناً يحكم عليه بالموت ويطرد من الساحة... وها هي المثالية تلغيها الماديتان الديالكتيكية والتاريخية وتقولان أنها كانت في وضع مقلوب... تمشي على رأسها... وما لبثت المادية التاريخية أن صاغت نظرية تمشي على بطنها... وكلتا النظريتين خرجتا من الساحة...

ولسوف يظل العقل الغربي يبتكر من المذاهب والموديلات الفكرية ما يسوق به مذاهب وموديلات أخرى إلى حتوفها...

وفي كل الأحوال فإن هذه الخطيئة، على ما فيها من كشوف في غاية القيمة، ما كان يمكن أن تحدث لو أن العقل الغربي تجاوز إشكالية (إما هذا أو ذاك) واستبدلها بالقاعدة الذهبية (هذا وذاك)... تماماً كما نجد ونتعلم من كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!



٧

من هنا يبدأ سباق الألف ميل

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ها هنا سبب نكستنا الحضارية... وها هنا نقطة الانطلاق!! إنها الآية التي تفسّر انكسارنا وتعطينا المفتاح للنهوض: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

ولطالما أكد كتاب الله على مبدأ التعامل مع الأمور بقوة، وظل يردّد ذلك في أكثر من موضع: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣]، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ﴾ [المائدة: ٢٣].

وطالما حدثنا الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام)

بأن الله ﷻ كتب الإحسان في كل شيء، وأنه يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يحسنه...

ولطالما تغاضينا عن هذه النداءات، فلم نأخذ تعاليم القرآن بوتائرها العليا، وإنما في حدودها الدنيا، لم نتعامل معها بالقوة المطلوبة، وإنما في حالة من الضعف والتراخي وعدم التماسك... لم نسع إلى الإحسان في أدائنا، وكشوفنا، وخبراتنا... وإنما اكتفينا بتقديمها في صورتها المشوهة، بل والبشعة أحياناً... لم ندخل الأبواب على خصومنا، وظللنا ساكنين لا نحرك يداً، وهم يجتازون البوابات لكي يدخلوا علينا ويسوموننا سوء العذاب...

تمّ هذا كلّه ولا نزال في زمن انكسارنا الحضاري... ولقد كانت الأسباب الأساسية في هذا الانكسار؛ أننا لم نتعامل بالقوة والإحسان المطلوبين في جهد كهذا... ولهذا ضعنا وخرجنا من التاريخ.

من خلال خبرة شخصية متواضعة يمكن أن نتعلم منها الكثير في السياق الذي نتحدث عنه... يوماً أتيح لي أن أشاهد لعبة لكرة القدم المحلية يتفوق فيها فريق إسلامي على خصمه باثني عشر هدفاً مقابل صفر... لماذا؟ لقد كان كل لاعب من الفريق الأول يتصور نفسه يقاتل الخصم في ساحة الجهاد، فيبذل أقصى ما عنده، ويقدّم أقوى ما يملكه من مهارات، وأكثرها إتقاناً وإحساناً... ولهذا انتصر فريقه على الخصم هذا الانتصار الساحق، حيث كل لاعب يتصور أن أي هدف يحققه أو يعين عليه إنما يتقرب به إلى الله ﷻ... فهل يمكن لفريق كهذا أن يُهزم في ساحة اللعب؟

إذا استطعنا أن نحوّل هذه الحالة المحدودة إلى الحياة في فضائها الواسع؛ فإننا سنفعل الأفاعيل، بكل تأكيد... هنالك حيث يصير كل واحد منا مجاهداً من طراز أوّل في الساحة التي يشتغل فيها، فيبدع، وينجز الكثير الكثير... ويبهر الآخرين بإبداعه وإنجازه...

ومن هنا يبدأ سباق الألف ميل لتحقيق المقاربة مع الآخر، وبدء المشروع الحضاري الإسلامي... وبدون ذلك فليس ثمة أمل... ليس ثمة أمل على الإطلاق...

أقارن بين المبارزة الغربية والمبارزة الشرقية، فيما تعرضه دور السينما أو يقدّمه التلفاز... بين مبارزة فيلم (ظهور الإسلام) وفيلم (سكاراموش)... إن الفارق هائل هائل بين مبارزة حقيقية يصطك فيها السيف بالسيف، ويضرب أصحابها بأقصى ما يستطيعون من قوة، ويقدمون أروع وأحسن عرض للمبارزة يشد أنظار المشاهدين، ويمنحهم القناعة فيما يرونه... وبين مبارزة مصطنعة متثائبة، كسولة، خائفة، بطيئة، مملة، لا يجد المرء فيها أيما لمسة للقوة والإحسان والإتقان...

طبعاً هنالك استثناءات محدودة لهذه الحالة، حيث أبدع مخرجون كبار كمصطفى العقاد (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) في فيلم (الرسالة)، وأحمد علي في مسلسل (عمر)، والمثنى صبح في مسلسل (القعقاع بن عمرو التميمي)... في تنفيذ مبارزات في غاية القوة والإحسان... وكان هذا من بين عوامل كثيرة أخرى؛ ما جعل فيلماً كهذا ومسلسلات كتلك تشد أنظار المشاهدين وتبهرهم...

أقارن أيضاً بين المهاجم الغربي في كرة القدم وهو ينقض

بأقصى ما يستطيع من قوة وإتقان في الركض إلى الهدف، ومناورة الخصوم، وإرسال الكرة كما لو كانت قذيفة تخرج من مدفع، وبين المهاجم الشرقي الذي يتحرك ببطء نحو الهدف، ويسدّد بالضعف الذي يمكّن حارس المرمى من الإمساك بالكرة بسهولة بالغة...

كل تفاصيل حياتنا الراهنة تنحو هذا المنحى، وكل تفاصيل حياتهم تنحو ذلك المنحى... وطالما قلت لطلابي: انظروا من النافذة إلى رفاقكم الذين يجتازون بناية القسم إلى البناية المجاورة الأخرى كيف يتحركون ببطء... يتمايلون، ويتلوون... وكأنهم يتعمّدون أن يسحقوا الكثير من الزمن قبل وصولهم إلى هناك... وانظروا إلى الغربي كيف يجتاز المسافة قفزاً لكي يصل إلى هدفه بأقل فترة ممكنة من الزمن...

إن الزمن فرصة ذهبية أعطيت للأمم والشعوب والجماعات كافة... والذين يحسنون توظيفها يتفوقون... أما أولئك الذين يفرّطون بها فإنهم يداسون بالأقدام...

أشياء وأمثلة كثيرة... وكثيرة جداً... يمكن أن تقال في مقال كهذا... ولكنه مقال لا يتحمل الكثير... وبإيجاز شديد يناسب مقتضى الحال؛ فإننا ما لم نلتزم بالخطاب القرآني الذي بدأنا به هذه الكلمات... ما لم نتشبث بتعاليم رسول الله (ﷺ)، ونسعى إلى التعامل معها وتطبيقها بأقصى درجات الجد... فلن نكون شيئاً على الإطلاق...



٨

رؤية عادلة للاستشراق

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

ينسحب هذا الخطاب القرآني على «الموضوعية» أو «الحيادية»، التي يتحتم أن تحكم تصرّفات المسلم وسلوكياته حتى في مجال البحث.

مثلاً: الباحث المصري وهو يعالج الصراع اليهودي أيام الفراعنة وأنبياء بني إسرائيل (عليهم السلام)... عليه ألا يتحيز لبني وطنه ويشن هجومه على الطرف الآخر، فيحرّف ويزيّف الحقائق بحجة أن اليهود هم خصوم المصريين والعرب والمسلمين!!

فالحق حق، وهو أحق أن يتبع... وها هنا يجب تقييم الموقف الإسرائيلي الداعي إلى التوحيد والتحرير ضد الموقف المصري المستند إلى الوثنية والاستعباد، بغضّ النظر عن الانتماء القومي

للباحث، وحتى ـ كذلك ـ بغضّ النظر عن الرؤية الدينية نفسها التي قد تجر الباحث إلى مواقف منحازة أو خاطئة أو مبالغ فيها...

ثمة مثال آخر من خلال تجربتي الشخصية في التعامل مع الحركة الاستشراقية دراسةً وقراءةً وتدريساً وتأليفاً. وقد أتيح لي منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي وحتى العقد الأول من القرن الحالي، أن اقرأ عشرات المصنفات التي أنجزها المستشرقون على اختلاف بلدانهم في أوربا غرباً وشرقاً، وأن أدرّس مادة «الاستشراق» لطلبة الدراسات العليا، وأناقش رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي تمسّ الموضوع في العديد من الجامعات العربية والإسلامية، وأن أنجز جملة من المؤلفات التي محّض بعضها للفكر الغربي الاستشراقي، وخصّص بعضها الآخر مقاطع وفصولاً عن هذا الفكر، بلغ عددها جميعاً أربعةَ عشر كتاباً.

وقد اتخذت هذه المؤلفات اتجاهين في الكتابة:

مضى أحدهما لكي ينقد ويفنّد المعطيات الاستشراقية: (**دراسة في السيرة، ابن خلدون إسلامياً، حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دراسة مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات، مدخل إلى التاريخ الإسلامي**)...

ومضى الآخر لكي يتبنى ويحلل الجوانب المضيئة من تلك المعطيات: (**قالوا عن الإسلام، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، أصول تشكيل العقل المسلم، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، المرأة والأسرة المسلمة من**

منظور غربي، القرآن الكريم من منظور غربي، الفن والعقيدة، غربيون يتحدثون عن الإسلام).

إن علينا أن نلاحظ كيف أن عدداً من الشهادات الإيجابية بحق الإسلام، أو جانب من جوانبه، من قبل هذا المؤلف أو ذاك، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات أخرى سلبية تقف موقفاً مضاداً من الإسلام، لكن هذا لا يمنع من اعتبار الشهادات الأولى بمثابة اعتراف حرّ بهذه القيمة أو تلك من قيم الإسلام، والتي تدفع الغربيين إلى إعلان رأيهم ذاك دونما أي نوع من أنواع القسر أو الاضطرار. وكشهادات وليس كموقف نهائي، يمكن أن تعتمد للدلالة على ما نحن بصدده.

فأما الشهادة السلبية فقد فرضت نفسها على نطاق واسع لأنها الأكثر حضوراً وانتشاراً في الفكر الغربي، ويستطيع المرء أن يجدها بسهولة في معظم الأعمال الغربية، التي تمسّ الإسلام...

وأما الشهادة الإيجابية فهي التي تحتاج إلى مزيد من التأكيد والتنسيق وإعادة العرض في إطار ملائم.

على أية حال ـ كنت أقول في نفسي ـ لقد تحقق التعامل العادل مع الموروث الاستشراقي، وتمّ تناول الصورة بوجهيها: الأسود الكالح والأبيض المشع، فالمؤرخ ليس شاعراً يهجو ويمدح ولكنه باحث عدل يتوخى الوصول إلى الحقيقة بأكبر قدر من الموضوعية، ولطالما رددت مع نفسي الآية الكريمة التي تنطوي على منهج عمل في الفكر والحياة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

لقد كان مبدئي الذي أكدته على طلبتي لمدى أربعين عاماً: احذروا قاعدة «**إما هذا أو ذاك**»، والتزموا قاعدة «**هذا وذاك**»، فإنها تمنحكم مفتاحاً منهجياً أكثر دقةً في التعامل مع الظواهر والأشياء في سياقي الفكر والحياة، وتخفف عنكم عناء الجدل العقيم، الذي يتشبث فيه كل طرف بوجهة نظره وقناعاته الخاصة، بينما هي ـ في الحقيقة ـ تكمّل إحداهما الأخرى...

ترى كم من الزمن والجهد استغرقه جدل كهذا، كان يمكن أن يوظف للعمل والبناء، بدلاً مما سبق وأن حذّر منه رسول الله (ﷺ) في أكثر من حديث شريف؟

لن يتسع المجال، في مقال موجز كهذا، للخوض في التفاصيل، وقد تكفي هذه الإشارات لتقديم خلاصة خبرة لأكاديمي واحد مع مسألة ثار حولها جدل كبير، ولا يزال، وهناك غيري الكثيرون ممن يمكن أن يقدّموا خبراتهم في الموضوع نفسه، فلعل هذه الخبرات جميعاً تنطوي على بعض (التعاليم)...



٩

مجرّد محاولة للتصالح

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣ ـ ٤].

فهل تكون هاتان الآيتان الكريمتان مفتاحاً لسوء التفاهم والثنائية بين المعتزلة والحنابلة بصدد أزلية القرآن وخلقه؟

وهل يكون القرآن، بمنطوق هاتين الآيتين، مخلوقاً أو حادثاً على المستوى التاريخي، أزلياً باعتبار منطلقاته الأساسية المثبتة في أم الكتاب؟ ولننظر في الآية الأخرى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] والآية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] والآية ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] والآية ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة: ١٠١].

هذه الآيات تصب جميعاً في بؤرة واحدة، وهي أن القرآن الكريم هو نتاج (الكتاب) المثبت منذ الأزل في علم الله ﷻ، والذي ينطوي على المعرفة الإلهية المطلقة لكل ما في الكون الكبير

من سنن، ونواميس، وخلائق، وظواهر، وموجودات، وجغرافيا، وتاريخ... الخ...

فلماذا ـ إذن ـ انفجر ذلك الصراع المتطاول بين الطرفين، والذي ذهب ضحيته قتالاً، وتعذيباً، واضطهاداً، حشود كبيرة من أهل السنة دفاعاً عن أزلية القرآن، وهي معلنة، صريحة، واضحة، في كتاب الله... بدلالة الآيات المذكورة؟

ألم يكن بامكان الطرفين الخروج بصيغة توافقية، تنقذ المعتزلة من الورطة التي أوقعوا أنفسهم وخصومهم فيها، ربما بإغواء تأثرهم المبالغ فيه بالفلسفة اليونانية التي غزت عقولهم، واخترقت السلطة الإسلامية فجعلتها لأول مرة في التاريخ الإسلامي تمارس ما يمكن تسميته بالثقافة الموجهة التي تشرف عليها الدولة، وتحاول أن ترغم الأمة وقياداتها على قبولها، بالعنف والقسر والإكراه؟

وفي ضوء الآيات المذكورة، قد تكون مساحات كبيرة من القرآن ذات بعد تاريخي، أي أنها منزلة لمعالجة حالات تاريخية... ومساحات كبيرة أخرى من القرآن قد تكون مبادئ معرفية مطلقة لا يأسرها زمن ولا مكان... فهي أزلية بطبيعتها.

لا بل إن الآيات ذات البعد التاريخي سرعان ما تتجاوز أسر التاريخ وأسباب النزول، لكي تمضي إلى المستقبل فتتعامل مع الجغرافيا والتاريخ على امتدادهما في الزمن والمكان، فيما يعرف بإطلاق الحكم، ويلغي مقولات العلمانيين عن (تاريخانية) القرآن الكريم...

ونحن نلتقي بمجموعة أخرى من الآيات قد تعيننا على الخروج

من المأزق الاعتزالي، وتضيف إلى المسألة التي أثارت ذلك الجدل العقيم... أنها تتمثل بمفردتي (الإنزال) و(التنزيل) القرآنيتين، اللتين تعني أولاهما إنزال القرآن دفعة واحدة، وتمضي ثانيتهما لكي تشير إلى تنزيله على مراحل زمنية متطاولة، فتكسب بذلك بعدها التاريخي. ولكنه ـ مرةً أخرى ـ ليس التاريخ المقفل على الزمن والمكان، وإنما المنفتح على المديات المستقبلية التي لا يحدّها زمن أو مكان...

ولنتابع جانباً من هذه الآيات: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ ـ ٥]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦)، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦]، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠].

لقد وردت المفردتان (الإنزال) و(التنزيل) بدلالتيهما المحدّدتين في كتاب الله في عشرات المواضع، وكأنها تريد أن تقول للناس: إن القرآن الأزلي أنزل دفعةً واحدةً إلى السماء الدنيا، مستمداً من كتاب الكون الكبير: (أم الكتاب) بالتعبير القرآني... ومن هناك أخذ يتنزل منجماً، وعلى مكث، لمتابعة حالات وأوضاع ذات بعد تاريخي... لكنه ـ وحاشاه ـ لم يكن أسير التاريخ، مقيداً بحدود الزمن والمكان، فهو يكسر هذه الحدود، ويطلق حكمه، ويمضي إلى كل زمن ومكان...

فعلام إذن ذلك الجدل المتطاول الذي أثاره المعتزلة في مواجهة أهل السنة والجماعة؟ ولماذا تلك البقعة السوداء في تاريخنا الفكري، التي لقي فيها ابن حنبل وأصحابه ما لقوا من العذاب والتنكيل... ما دام كتاب الله يقدّم رؤيته الإلهية للمسألة من طرفيها بهذا الحشد الكبير من الآيات؟!



١٠

مسافة للمجابهة

إن القرآن الكريم في هاتين الآيتين اللتين تتحدثان عن الخوف والحزن والفرح والندم والمصائب والانكسارات... الخ... يريد أن يحقق نوعاً من الانفصال بين المسلم والعالم... يوسّع فاصل الألم بين الطرفين... بين الإنسان وبين النازلة أو التجربة، لكي يقدر على تحجيمها ومعاينتها عن بعد ومعرفة مساحتها الحقيقية، ليتمكن من مجابهتها مجابهةً منطقية واعية ـ إذا صحّ التعبير ـ دون أن يسمح لها بتدميره أو ابتلاعه بالوهم أو التضخم... دون أن يجعلها تسحقه بهجوم مباغت، قد لا يملك وسائل الدفاع الكافية لصدّه... إن القرآن يعلمنا مبدأ يعرفه العسكريون جيداً: الهجوم خير وسيلة للدفاع... أن نعرف عدّونا جيّداً... وأن نهاجمه من موقع الاقتدار قبل أن يوجّه إلينا ضربته القاتلة.

إننا لو بحثنا في عناصر تعاسة الإنسان من أجل وضع اليد على مواطن الجراح الأساسية، لوجدناها تكمن في الندم على الفرص الفائتة، أو الضائعة، والفرح الطاغي لمكاسب قد تزول قريباً، فيجد الإنسان نفسه منسحقاً بالغم والقهر...

وإذا بالآيتين الكريمتين تحاولان، أو بعبارة أدق، تأخذان بيد الإنسان من أجل أن يتجاوز هذه المأساة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

إن الفلاسفة والأدباء وعلماء النفس طالما أكدوا على استمرارية الإنسان الشعورية، وأن مأساته تكمن في سيّال تناقضاته بين الغم والفرح... بين الانكماش والانتفاخ... وبين الندم والقلق والخوف... وتجيء هاتان الآيتان لكي تعالجا هذه المأساة... إن القرآن يريدنا أن نرتفع عليها... أن ننفصل عنها... أن نأخذ بالمبادرة ونمسك بالزمام.

ولو تمعنّا في الحياة لوجدنا الإنسان مسحوقاً دائماً بالحزن والندم على ما فات، والخوف والقلق الساحق على ما سيأتي ويدمّر عليه مكاسبه وانتصاراته... ومن ثم فإن القرآن الكريم يريدنا أن نتجاوز هذا... أن نتمرد عليه... أن نفكّ إساره ونرتفع عليه...ولذا فهو يصف المؤمنين الحقيقيين بأنهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧... الخ]...

هذا التحرير القرآني لا يقف عند حدود الفرد، بل يمضي بالخطاب نفسه إلى الجماعات والشعوب والأمم، من أجل ألّا يسلمها الانكسار إلى الهزيمة النهائية، ولا يدفعها الانتصار إلى التضخم والورم والغرور، واعتماد منطوق التفوّق لسحق القوى المضادة سواء

داخل الدولة الواحدة بين الحاكم والمحكوم، أو بينها وبين دول العالم الأخرى الأضعف، والتي لا تملك الردّ الكافي على الطغيان.

لكأن هذا الموقف القرآني المدهش يقف في مواجهة فلسفات البطش والغرور والعدوان، التي ساقت العديد من القوميات الشوفينية، والدول الكبرى، إلى الفتك بالشعوب المستضعفة، وذلك بجعلها تتكئ على خلفيات فلسفية تبرّر هذا الفتك وتعتبره حتمية تاريخية...

تماماً كما حدث في فلسفة (هيغل) المثالية، التي تمخضت عن تضخيم العسكرية الألمانية وتبرير عدوانيتها القاهرة في حروب (١٨٧٠ م، ١٩١٤ م و١٩٣٩ م)... وهي التي تمخضت عن قيام الحركة الشيوعية بذبح ملايين الناس بحجة حتمية الصراع الطبقي، وضرورة تسلّم (البروليتاريا) مقاليد الحكم والسلطان في العالم... وهي التي تمخضت عن السياسات الهوبزية لأمريكا التي تبناها ريغان وبوش الأب وبوش الابن فسحقت شعوب أفغانستان والعراق...

والقرآن الكريم في هاتين الآيتين لا يكتفي بوقف مأساة الغمّ على ما فات، والاندفاع الأعمى مع القوة والانتصار... وإنما يربط الأمر كلّه ببعده القدري... فهما قبل تحققهما في التاريخ، مثبتان في الكتاب... أي في قدر الله وعلمه، فيما يجعل الإنسان يطامن من إحساسه بالغرور... ويخفف من لوعة الندم على خسائره وانكساراته... ما دامت هذه وتلك مدوّنة في الكتاب من قبل أن تتشكل في صفحة التاريخ.

ولطالما حذّرتنا الآيات القرآنية من الخوف ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ

عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦] ووصفت المؤمن الجاد بأنه لا يخشى إلّا الله ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

... كأن القرآن بذلك يريد أن يحرّرنا من الأوهام، فنحن كثيراً ما نتناسى معنى هذه الآيات، ونخشى غير الله الكثير الكثير: الزعماء والطواغيت، والمصائب والانكسارات، والحتميات والويلات و... و... الخ فنقع في دائرة الوهم المعذّب الذي يفترس من حياتنا وطاقاتنا الكثير الكثير... ثم ما يلبث أن ينكشف في نهاية الأمر عن (لا شيء)... وأن الله وحده، ﷻ، هو الحقيقة المطلقة، والقوة المطلقة، والزمن المطلق، وما دونه فليس سوى هباء... إنها دعوة لتحرير الإنسان من الخوف وإطلاق طاقاته على مداها...

وإنها ـ والحق يقال ـ معالجة تثير الدهشة والإعجاب، تجيء في سياق هذا الكتاب العظيم الذي لا تنقضي عجائبه، والذي أنزله الله ﷻ الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء... وكل شيء عنده بمقدار... ﷻ...



11

الطاغوت هو الطاغوت

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طـه: ٦٢ ـ ٦٤].

الطاغوت هو الطاغوت... والحاشية هي الحاشية... والاعتقاد هو نفسه: الطريقة المثلى... أي أن المذهب الذي ينتمون إليه هو الطريق الأمثل!! ثم اعتماد أقصى درجات العنف والكيد للبقاء في موقع الاستعلاء والتحكم...

أليست هذه هي وضعية كل الطواغيت في العالم، وعلى مدار التاريخ؟

أليس هذا هو ما شهدناه ولا نزال نشهده عبر العقود الأخيرة في ديارنا؟

أليست هي الحلقة المحكمة التي تدفع الحكام في معظم الأحيان إلى التشبث بالسلطة... بالأرض وليس بالقيم... وإلى اعتبار مذهبهم وسياساتهم هي الطريقة (المثلى)... ومن ثم اعتماد أقصى درجات العنف والكيد للبقاء في موقع التحكم ومجابهة كل قوى

المعارضة التي تريد أن يكون لها مكان... ولو عبر مساحة ضيقة، في سياسة الأمور؟

إذن، فإن فرعون وحاشيته، هما وسيلة إيضاح لكل الطاغوتيات في العالم... ولهذا السبب ركّز كتاب الله عليهما، وعرض لموقفهما هذا من أكثر من زاوية... وأعاد القول فيهما أكثر من مرة... وكأنه بهذا يريد اثنتين: تثبيت الملامح الأساسية للطغيان عبر التاريخ، وتحذير الشعوب والجماهير المؤمنة من تسلّطه وكيده، واعتماده أخسّ الأساليب وأدونها وأحقرها في التعامل مع المعارضة، من أجل سحقها والاستمرار في تربّعه بمواقع التحكّم والسلطان...

ولكن... هل قدّر لفرعون... ولكل طواغيت العالم... أن يستمروا في لعبتهم القذرة هذه... وأن تظل جماهيرهم ملوية الرقاب، محنية الظهور لسياطهم الكاوية، وحكمهم القاهر؟

أبداً... فها هو ذا فرعون ينتهي غرقاً ـ بإرادة الله سبحانه وتعالى ـ ويظل جسده معروضاً في متحف الآثار المصرية، عبرة للمعتبرين: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

وها هم فراعنة العصر الحديث: شين العابدين، وحسني مبارك، والقذافي، وعلي عبد الله صالح... كنستهم شعوبهم في ثورات الربيع العربي إلى مزبلة التاريخ...

ومن قبل أولئك وهؤلاء، هل قدّر لطاغية في التاريخ، ولذرّيته من بعده؛ أن تظل في مراكز الحكم والسلطان إلى أبد الآبدين؟ أبداً...

فإن القرآن الكريم يحسم الأمر كلّه بهذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

أو لم يروا؟ أو لم يفتحوا أعينهم جيداً وينظروا إلى حركة التاريخ البشري حيث مداولة الأيام بين الناس، وحيث ينزل المقصّ الإلهي إلى الدول والامبراطوريات والممالك فيقضمها قضماً، ثم يخرجها من التاريخ غير مأسوف عليها؟ فهل قدّر لدولة أو مملكة أو إمبراطورية أن تظل على مدار التاريخ؟! أبداً...

ذلك أن الذي يحكم هذا العالم ليس بوش ولا بريجنيف ولا ماوتسي تونغ ولا زين العابدين أو حسني مبارك أو القذافي... وغيرهم من كل طواغيت العالم... فالذي يحكمه، ويقدّر مصائره هو الله ﷻ... حيث لا معقب لحكمه... وهو سريع الحساب...

لكن هذا كلّه لن يتمّ... وتحرّر الشعوب من طواغيتها لن يتحقّق؛ دون الأخذ بالأسباب... والأسباب هي أن تعلن هذه الشعوب ثورتها ضد الطواغيت... أن تضحي وتستشهد وتتعرض للأذى والعذاب... أن تواصل التضحية والاستشهاد حتى يجيء النصر الموعود.

أن تعلن تحدّيها لهيمنة الطاغوت... أن تكسر حاجز الخوف... والتردّد...

ومن قبل عندما طلب موسى (عليه السلام) تحديد موعد اللقاء الحاسم بينه وبين فرعون وحاشيته وأزلامه وسحرته... لم يتردد موسى لحظة واحدةً... وتحدّاهم بأن جعل موعد اللقاء ضحىً يوم

الزينة... حيث تجتمع جماهير الناس: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٨ ـ ٥٩].

وفيما بعد عندما قررت الشعوب التونسية والمصرية والليبية أن تتحرك ضد طواغيتها... اجتمعت صفاً واحداً... وعرّضت وجودها ومصالحها للدمار... ولكنها واصلت الثورة وقدّمت حشود الشهداء... حتى أذن الله ﷻ لها بإزاحة طواغيتها، وتنفّس الهواء النظيف بعد عشرات السنين من الظلم والجور والاضطهاد... لا بل بعد التلويح باستمرار هؤلاء الطواغيت إلى ما لا نهاية، من خلال أبنائهم وذراريهم...

فالذي يستعلي في نهاية الأمر، ليس الطواغيت والأرباب... وإنما جماهير الناس الثائرة التي عرفت كيف تكون الثورة عليهم... وكيف تكون التضحية والاستشهاد... وكيف ينتزع النصر انتزاعاً؟...

ولا رادّ لكلمات الله...



١٢

انتظروا مئات أخرى من السنين

انتظروا أيها الفجرة الكفرة مئات أخرى من السنين، لعلّ أمنيتكم تتحقق في توقّف العمل الإسلامي، وغياب الخطاب الإسلامي... وانقطاع أجيال العاملين من أجله...

ولن يتحقق هذا الذي تتمنَّوه، ويسعى من أجله طواغيت العالم وأربابه الزائفون حكاماً ونخباً وأحزاباً وجماعات...

إذ ما دام هناك قناعة موغلة حتى النخاع بتفاهة الحياة الدنيا، وانصرامها، وكونها تجربة مترعة بالثقوب السوداء... وأن الآخرة خير وأبقى... ما دام هناك حشود من المؤمنين حتى آخر خلية في دمائهم، بأن الآخرة خير من العاجلة، وأن الحساب النهائي سيكون هناك... وأن عليهم أن يحرّروا العباد من هيمنة الأرباب الزائفين... من فرعون وهامان وقارون... وكل طواغيت العالم... وجعلهم لا ينحنون إلّا لله وحده، فيتحررون من كل صنوف الذلة والقهر والاستعباد... فسيظل الدفق الإيماني يتنامى... وسيظل هنالك ملايين الناس، يلتحمون بهذا الدين، ويؤمنون بمطالبه، ويعملون من أجل الحصول على جواز سفرهم إلى الجنّة...

ولن تكونوا، وكل الجماهير الغثاء التي تنعق وراءكم، والقوى الكبرى التي تسوقكم كالأنعام - في نهاية الأمر - إلّا كذلك الذي قال فيه الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فما أضرها وأوهى قرنه الوعل!!

لقد تكسّرت على مدى قرون من الزمن آلاف القرون، وانسحبت من المناطحة آلاف الوعول... وهذا الدين ماضٍ، بقوة دعاته العاملين إلى اهدافه المرتجاة: تحرير الإنسان من قبضة المتألّهين في الأرض، من الزعماء والطواغيت والأرباب الزائفين... ونقل الناس والجماعات والشعوب والأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور المذاهب الجائرة، والأديان المحرفة، إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد والحتميات والأصنام والوثنيات إلى عبادة الله وحده...

وها أنكم ترون بأمّ أعينكم كيف أنه في مصر... وتونس... وليبيا... عادت الطلائع الإسلامية إلى القمة، بعد عقود طوال من الكبت، والملاحقة، والتنكيل، والاعتقال، والعزل، والتعذيب، الذي لم تعد تستوعب مفرداته البشعة كل قواميس العالم!!

وهم ماضون لتحقيق المزيد... رغم كل محاولات الارتداد الخائبة إلى عصور الوثنية، والتي وظفت لها كل قوى الثورة المضادة من مال وإعلام وأنشطة سياسية، وإسناد دولي، ودعم صليبي، وإغواء صهيوني...

فاطمئنوا فإن للبيت رباً يحميه...

فرغم كل محاولات الوأد التي شهدتها عهود الطغيان في مصر وتونس وليبيا، فيما لم نعرف لها مثيلاً في أشد عصور التخلّف

والهمجية... عاد الإسلاميون مرةً ومرتين وثلاثاً لكي يقفوا في قمة الحركة التاريخية، يقودونها ويوجهونها، وينفخون فيها نار الثورة، ويحمونها من التآكل والدمار...

وفي كل الثورات الشعبية ضد الطواغيت والفجرة، كان النبض الواحد... الثيمة الواحدة... القاسم المشترك الأعظم الذي يضم القوى الثائرة جميعاً هو شعار **(لا إله إلا الله)**... ذلك الشعار الذي بدأ به الرسول القائد (عليه أفضل الصلاة والسلام) انقلابه الحاسم على الشرك والوثنية، ومرّغ به أنوفها في التراب... وهو الشعار نفسه الذي قال عنه المفكر الفرنسي المعروف (روجيه غارودي) بأنه «قدير على تحويل الجبال عن مواضعها»!!

إنه الصرخة المختنقة التي أرادها كذلك أولئك الذين سعوا لأن يحلّوا محلّ الله (وحاشاه) في حكم العالم، ولكنها ما لبثت أن انفجرت لكي ما تلبث أن تطيح بهم جميعاً...

فيا أيها الخصوم والأعداء الذين تريدون الحياة الدنيا مرعى للمتألهين في الأرض، يسوقونكم كالأنعام، ويحتلبون لبنكم وأموالكم وكدحكم ودماءكم... وأنتم ماضون كالعميان... في صراعكم مع القوى الإسلامية التي تريد لكم خيراً... وتسعى لتحريركم من قبضتهم، وجعلكم تحيون الحياة التي تليق بكرامة الإنسان...

يا أيها الأنعام!. انتظروا مئات أخرى من السنين لعلّ أمنيتكم تتحقق في توقف العمل للإسلام... ولن يتحقق هذا الذي تتمنوه أبداً: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١]. وصدق الله العظيم...

١٣

الكشف العلمي
يقرّبنا من صفات اللّه...

الكمبيوتر... هذا الجهاز الذكي الذي يجيبك عن كل سؤال، ويضع بين يديك في لحظات عشرات الكتب والبحوث... ومئاتها... لابد له من صانع، وإلّا وقعنا في خطيئة المادية الديالكتيكية البائدة، التي تقول بتغير الموجودات الكمية إلى أخرى نوعية، وهكذا تتطور الحياة ونواميس الكون دونما أي تدخل من الخارج... دونما أية قوة واعية، مدركة، تقوم بتوجيه الموجودات صوب الأحسن والأرقى... فيما يذكرنا بسخرية المفكر الإنكليزي (الكسندر غراي) حول جذع الشجرة الذي إذا طرح في الغابة ملايين السنين فلن يتحول وفق المفهوم الديالكتيكي إلى منضدة صالحة للكتابة، ذات قوائم أربع وسطح أملس ومجرّات... و... و...

إذن فإن الكمبيوتر لا بدّ له من صانع... والصانع هو الإنسان، وإن الفضل في خلق الإنسان هو لله وحده ﷻ، صانع الكمبيوتر البشري الذي خزّنت في عقله ـ ابتداء ـ المعلومات كلها منذ لحظة خلق أبيه آدم (عليه السلام) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]...

هذا الكمبيوتر البشري الذي ينطوي عقله على قدرات الكمبيوتر الصناعي مضافاً إليها عشرات ومئات من الإمكانات التي يعجز عن أدائها الكمبيوتر الصناعي... من مثل التذكر... والتحسّس... والانفعال... و... الخ...

وما من شك في أن الكمبيوتر يحتلّ طفرة مدهشة في الحضارة المعاصرة... خلاصة الخبرة التقنية لهذه الحضارة التي أمدّتنا بالإنترنيت، والذي يمكن تحديد عمله في أنه اختزال زمني للوصول إلى النتائج وحسابها بدقة كاملة...

من جهة أخرى، فإن هذه النتائج تزداد قرباً من الكمال كلما كانت المعلومات والدقائق التي يغذى بها الجهاز أكثر تنوعاً واكتمالاً...

وإننا نجد في كتاب الله تأكيدات متواصلة على القدرة الإلهية المطلقة في هذين الاتجاهين اللذين يستهدفان الإحاطة والمعرفة الدقيقة الكاملة:

أ ـ السرعة والاختزال الزمني: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ب ـ تنوّع المعلومات واكتمالها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]،

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦]. وصدق الله العظيم وجلّت قدرته على القدرات.

والحق أن تقدّم العلوم البشرية لا يحقق المطابقة فقط بين الكشوف العلمية وبين معطيات القرآن، فيما تؤكده الدراسات المعنية بالإعجاز العلمي للقرآن، والتي بلغت قمتها في كتاب الباحث الفرنسي **(موريس بوكاي): (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة)** الذي يخلص فيه بعد عشرين سنة من الدراسات المقارنة إلى أن تسعة أعشار ما ورد في التوراة ومثلها في الإنجيل، تسقط بإحالتها على الكشوف المعرفية الحديثة ولا يمرّ سوى العشر... بينما في القرآن فإن الذي يمرّ هو بنسبة عشرة من عشرة!!

ولكن تقدّم العلوم البشرية يحقق مقاربةً أخرى أدعى لإثارة الدهشة والانبهار... إنها المقاربة مع صفات الله جلّ في علاه... فإذا كان ـ مثلاً ـ جهاز من صنع الإنسان كجهاز الكمبيوتر يختزل الزمن ويقدم النتائج الحسابية والإحصائية بدقائق ولحظات... فما ظننا بقدرة من خلق الإنسانَ نفسَه صانعَ هذا الجهاز؟

إنني أتذكر أقربائي من المحاسبين في الشركات... كيف كانوا في خمسينيات القرن الماضي وحتى ثمانينياته يجلسون وراء مكاتبهم الساعات الطوال لضبط حسابات شركاتهم والوصول إلى النتائج النهائية، وقد لا يصلون... بينما هم اليوم يحصلون على المطلوب في دقيقة واحدة أو جزء من الدقيقة... ألا يقرّبنا هذا الكشف من صفة الله جلّ في علاه بأنه (أسرع الحاسبين)؟!

وثمة الكشف الخاص بالأقراص الليزرية التي تنطوي بالكلمة والصورة معاً على عشرات الآلاف من المعلومات الدقيقة المتعلقة بهذا الإنسان أو ذاك... وبهذه الحالة المعرفية أو الاجتماعية أو تلك... ألا يقرّبنا ذلك من القدرة الإلهية التي تضع الإنسان يوم الحساب وجهاً لوجه أمام هذا القرص الدوّار الذي يعرض تفاصيل حياته كاملة بحسناتها وسيئاتها معاً: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

وغير هذين الكشفين، كشوف عديدة أخرى تقرّبنا أكثر فأكثر من خصائص الصفات الإلهية المدهشة، والمطلقة في أدائها...

ويقيناً... فإن اليوم الذي ستتطابق فيه كشوف الإنسان كاملة مع معطيات القرآن سيجيء... وسيجيء حتماً... ما دامت هذه مقدّماته...

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩] والقائل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].



١٤

ما هو أدعى للعبرة من الموت!!

دائماً كنت أقول أن هناك ما هو أدعى للعبرة من تفاهة الحياة الدنيا، وضيقها، وتقطّعها، وانصرامها... من عبرة الموت نفسه... إنها الشيخوخة التي يدلف إليها الإنسان مرغماً، وهو يقطع رحلة الحياة، وكدحها الطويل... يدلف إليها مقوّس الظهر... كليل البصر... ثقيل السمع... بطيء الخطوات... متقطع الأنفاس... لا يكاد يقوى على مواصلة السير...

وكنت أنظر برثاء إلى شيوخ الحيّ الذي أقطنه في مدينتي، أولئك الذين سرعان ما تقوّضوا وهم يدلفون إلى السبعين أو الثمانين من العمر... بعضهم يجرّ خطاه جرّاً إلى المسجد القريب لكي يلحق بصلاة الجماعة... وبعضهم الآخر يقعد في بيته مرغماً لا يقدر على مغادرته أبداً...

وفي الحالتين، فإن ما يضاف إلى هذا وذاك جملة من الأوجاع والأمراض، التي لم يجدِ معها طب الأطباء ولا دواء الصيادلة... لقد تمكنت منهم وأسَرَتْهم في مستنقعها الموحش الكئيب...

كنت أنظر إليهم وأقول في نفسي: أهذه إذن هي حياة الإنسان

الذي يكدح، ويتقاتل، ويتصارع، وينشب أظفاره في الدنيا، والذي في كثير من الأحيان يمارس الآثام والأخطاء وربما الجرائم من أجل دينار أكثر يضعه في خزائنه... لا بل الذي يغدر... وينتهك... ويقتل إذا اقتضى الأمر، من أجل مكسب تافه، قد لا يعني شيئاً مطلقاً إذا وضعناه إزاء هذه المعادلة المحزنة، التي تنكس الإنسان في نهاية الأمر وتردّه إلى أرذل العمر.

من أجل ذلك نادانا القرآن محذّراً، ومنبهاً: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]... ولكن هل من مجيب؟!.

إن معظم الناس يقطعون حياتهم الدنيا ورؤوسهم منكبّة بين أقدامهم... لا يقدرون على رؤية الأحجام الحقيقية للأشياء... وسبر غور المصائر والمقدرات... إنهم كالأنعام... بل هم أضلّ... في الوقت الذي أراد القرآن لنا شيئاً آخر ونادانا: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

فمن أجل حفنة من السنوات الزائلة التي تؤول إلى تلك الحالة المأساوية من الشيخوخة، التي لا تقدر على شيء، والتي تؤذن بقرب يوم الرحيل إلى القبور... ومنها إلى يوم الحساب.. يتقاتل الناس، ويخدع بعضهم بعضاً، ويغش بعضهم بعضاً، ويسرق بعضهم بعضاً، وينشب بعضهم أظفاره في البعض الآخر... لا بل إن هنالك ما هو أدهى من ذلك، وأكثر مرارةً، وأدعى للحيرة والتساؤل... هنالك الطواغيت الذين تسنّموا زمام السلطة في هذا البلد المنكود أو

ذاك، والذين أوشكوا أن يدلفوا إلى الشيخوخة، أو هم قد دلفوا إليها فعلاً... تراهم يرفعون السكين بمواجهة شعوبهم المستعبدة التي تطالب بحرّيتها، وحقها في الحياة... فيقتلون... ويفتكون... ويحصدون الآلاف المؤلفة من أبناء شعبهم... ثم ماذا بعد؟!

إنه المصير المحتوم لكل الطواغيت في هذا العالم... أن يعانوا من ذلّ الشيخوخة، وأن يمضوا بعده سراعاً إلى القبور... هذا إن لم يتساقطوا قتلى بيد شعوبهم التي استعبدوها طويلاً...

وها هو (حسني مبارك) نموذجاً للفئة الأولى، و(معمر القذافي) للثانية... فأما أولهما فهو لا يزال يعاني من قهر الشيخوخة وذلّها... ومن ضيق السجن وإذلال السجّانين... ومن الأوجاع التي لا أوّل لها ولا آخر... وكأن الله ﷻ تركه وسيلة إيضاح للطاغية الذي يمارس ذبح شعب بكامله، ثم ينتهي إلى هذه النهاية البشعة... وها هو ذا (معمر القذافي) يلقى القبض عليه مختبئاً في أحد مجاري المياه القذرة، ويتوسل بالذين قبضوا عليه ألّا يقتلوه... كيف وقد شبع من الدم... والقتل الجماعي... والفساد الأخلاقي حتى العظم؟ وغير هذين الطاغيتين كثيرون... كثيرون جداً... منهم من قضى، ومنهم من ينتظر لحظات الويل والعذاب...

فيا أيها الطغاة!... أيها الذين يخيّل لهم الشيطان أنهم سيعيشون إلى الأبد!... لن تتناوشهم الشيخوخة، ولن يطالهم الموت!...

ويا أيها العصاة والمجرمون!... يا أيها السفلة والقتلة والسرّاق والغشّاشون!... يا أيها البلطجية والفتوات والقبضايات الذين

لا يتكلمون إلا بالعصا!... يا أيها الغافلون!... السادرون... اللاهون... انتبهوا... فإن أمامكم نكسة الخلق وأرذل العمر... ومن بعدها الموت المحتوم... ثم ساعة الحساب التي لن يفلت من قبضتها أحد!...

انتبهوا قبل فوات الأوان... وضياع الفرصة الوحيدة التي أعطيت لكم... اقرؤوا جيداً هاتين الآيتين... تمعّنوا فيهما... أوغلوا في دلالتهما لعلها تردّانكم إلى الحق... أو على الأقل إلى شيء من الحق... وإلّا... فإنها والله للصفقة الخاسرة، بأي معيار من المعايير: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]...

أفلا تعقلون؟!



١٥

أية هداية هي هذه؟!

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٥ ـ ٣٦].

تذكرني هاتان الآيتان بهداية الأرباب الزائفين التي تقوم على الالتواء والكذب، والتي تخضع للتبديل والتغيير وفق مصالح هؤلاء الأرباب ونزواتهم وأطماعهم وظنونهم... فأي حق هو هذا؟ وأية هداية هي هذه؟

وها هو أحد هؤلاء الأرباب الزائفين (أوغست كونت)، مؤسس واحدة من أشد الفلسفات الاجتماعية أهمية وانتشاراً في أوروبا، يغيّر رأيه بسبب دوافع ذاتية صرفة، في واحدة من المسائل الأساسية في الحياة البشرية: المرأة. فكيف يرجى لفلسفة أن تمنح اليقين لتلامذتها والمعجبين بها، بل كيف نفسّر تحوّلها، وغيرها كثير من الفلسفات البشرية العاجزة، إلى ما يشبه الدين الذين ينحني الغربيون لمسلّماته ويعتقدون أنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه؟ ألا ينسحب الأمر على معظم الفلسفات والعقائد الوضعية، إن لم نجازف فنقل: كلّها!!

إن الفيلسوف المذكور يتخذ، بسبب من دوافعه الذاتية التي لا تقوم على أي أساس موضوعي، موقفين متناقضين من المرأة!!.

ففي رسالة له بعنوان (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) يبعث بها إلى محبوبته (كلوتيله دي فو) يغيّر رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييراً تاماً!! فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستورات مل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير، أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه!!

والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض... هو أنه في الأولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه، ولكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار، والالتحاق بمستشفى المجانين حيناً من الدهر، وفي الثانية أحب فتاة لم يتح له الزواج بها لكنها منحته نفسها وأحبَّته حبّاً صادقاً...

ونقارن هذا العبث بالموقف الديني من المرأة... الموقف الثابت الواضح المنبثق عن علم إلهي محيط بتكوين هذا الجنس، وخصائصه، ووظائفه المناسبة، فنراه شاسعاً هائلاً... ونرى الذين يتجاوزونه صوب الأحكام النسبية المتغيرة كأحكام (كونت) إياها... ويريدون أن يتعاملوا على أساسها المتقلب مع المرأة، يستحقون الرثاء والازدراء...

ولا زلت أذكر مدرّس التاريخ في الإعدادية، وهو يخطو بحذر

وتريّث خلال شرحه لفقرات من المقرر الدراسي خُصّصت للفيلسوف الألماني (هيغل) ولفلسفته المثالية، وكنا نحن نقول في أنفسنا: إذا كان مدرس المادة غير قادر على اقتحام بحر (هيغل) العميق، فأنّى لنا أن نجتازه بعقلياتنا الساذجة، وثقافتنا المتواضعة؟!.

ولا زلت أذكر ـ كذلك ـ أستاذ الفلسفة في كلية التربية، وهو يحدثنا عن الفلسفة المثالية (لهيغل)؛ كيف أنه أراد أن يعطينا جانباً من فلسفته كما لو كانت مسلّمات مطلقة، ولكنها مساحات غامضة، معمّاة، ما كانت تزيد الرجل وفلسفته في نفوسنا إلا إجلالاً وإكباراً!!

ولكن هذا الإله المزيّف، سرعان ما غيّر رأيه هو الآخر والتوى بفلسفته بزاوية مائة وثمانين درجة!! فبعد أن كان من المعجبين بمفاهيم العسكرية الألمانية، وتفوّق العنصر الجرماني، واعتباره المعبّر عن الروح المطلق من خلال الدولة، الأمر الذي وضع التأسيسات الأولى للنظرية الشوفينية التي افترست العالم في الحرب العالمية الثانية.. إذا به بعد انتصار (نابليون بونابارت) على ألمانيا في معركة ينّا عام (١٨٠٧م)، يغيّر رأيه ويعرب عن انتمائه (للبطل على حصان أشهب)، ويقصد نابليون الذي حمل مبادئ الثورة الفرنسية إلى أوروبا، فيما هو نقيض تماماً لمفاهيم العسكرية الألمانية.

ففي أي الموقفين يمكن أن يكون هذا الفيلسوف (الكبير) محقاً؟ وفي أيهما يكون مخطئاً؟ إنها الأهواء والظنون والميول

الشخصية، التي لا يحكمها مبدأ أو معيار موضوعي ثابت، ولا يخطط لها عقل تجريدي بعيد عن النزوات والأهواء...

وغير (أوغست كونت) و(هيغل) عشرات من الفلاسفة والمفكرين، الذين استعبدوا الناس بفلسفاتهم المخادعة، عقوداً وربما قروناً من الزمن، قبل أن تنكشف على حقيقتها، وتخرج من الساحة، بعد أن تكون قد ضيّعت على عبّادها الكثير من الجهد والزمن.

هؤلاء هم الشركاء الذين يحدثنا عنهم القرآن الكريم، ويدينهم بأنهم لا يملكون القدرة على التوصّل إلى الحق وهداية الناس إليه... ذلك أنهم يقيمون صرح فلسفاتهم على الظنون التي لا تغني عن الحق شيئاً:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].



١٦

بين الجاهليين القدماء والطائفيين الجدد

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٦].

دعونا من هذه الترهات التي ردّدها ولا يزال الجاهليون القدماء والجدد، ولنفترض أن محمداً تلقى كتابه عن الآخرين من أهل الكتاب، فمن الذي أعطاه القدرة التي تتجاوز الحدود البشرية بكل المقاييس، على إخضاع الكتب الدينية السابقة بخصوص المعطيات المعرفية، للاختبار الدقيق الصارم في ضوء كشوف لم يزح عنها النقاب وتدخل دائرة الضوء إلّا بعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرناً من اللقاء المزعوم بين محمد (ﷺ) وبين أهل الكتاب!!

إن الباحث الفرنسي المعاصر (موريس بوكاي) في دراسته المقارنة للكتب السماوية الثلاثة، والتي استغرقت عشرين عاماً، وصدرت ترجمتها العربية بعنوان (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم:

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) (عن دار المعارف في القاهرة ـ ١٩٧٨ م) يمارس مهمته ـ كما يقول ـ بعقل علماني ملحد لا يؤمن بأي من الأديان ولا يسلّم بكتبها، ولكنه يخلص إلى جملة من الحقائق والاستنتاجات هذه بعضها: (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث.

وبالموضوعية نفسها قمت بالفحص نفسه على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين. فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل فإننا نجد نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحةً أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة) (ص ١٣).

لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع الميلادي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة، في الخلق وعلم الفلك، وعلوم الأرض والحيوان والنبات، والتناسل الإنساني؛ التي تعكس التوراة أخطاء علمية ضخمة بشأنها؟ ليس هناك أي مجال

للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً النصّ الأوّل نفسه. ما التعليل الإنساني الذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة.

(في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية استطاع ـ يومها ـ أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات) (ص ١٤٥).

(كيف يمكن لإنسان ـ كان في بداية أمره أمياً ـ أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكوّنها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة) (ص ١٥٠).

(مقارنة العديد من روايات التوراة مع روايات الموضوعات في القرآن نفسه تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً، وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة. وعلى حين نجد في نص القرآن معلومات ثمينة تضاف إلى نص التوراة، نجد فيما يتعلق بموضوعات أخرى فروقاً شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل من ادّعاء ـ دون أدنى دليل ـ على نقل محمد (ﷺ) للتوراة، حتى يعدّ نصّ القرآن) (ص ٢٥٨ ـ ٢٨٦).

هذه التأشيرات الأربع تكفي من بين عشرات غيرها لن يتسع لها المجال، والأفضل ألا يتسع، إذ ليس مقبولاً أن يضيّع المسلم الجاد وقته وجهده في الردّ على ترهات كهذه... وهي ترهات مارسها الجاهليون القدماء والطائفيون الجدد، والتي يسميها القرآن باسمها الحقيقي: الظلم والزور!!

١٧

الكتاب الذي يضع الأمور في نصابها

كثيراً ما كتب الباحثون، وتكلم المتكلمون، وخبط الخابطون، وهم يتحدثون عن العصر الجاهلي، فذهب بعضهم يميناً وذهب الآخرون شمالاً... وتصادت الأفعال وردودها بين الطرفين دون أن تستقر على حال...

هم يلجؤون إلى معطيات التاريخ الظنية النسبية القاصرة... ونحن نلجأ إلى كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!

هم يلجؤون إلى علم التاريخ... وهو علم إنساني غير منضبط، يحقق المقاربة للوقائع التاريخية، ولكنه يعجز عن تحقيق المطابقة التامة، لكونه دوّن بعد فترات قد تطول وقد تقصر عن تشكل الوقائع، ولأن المؤرخ إنسان يجد نفسه في كثير من الأحيان مسوقاً وراء تحيّزه، وانتمائه، ومصالحه، ومذهبه... بينما كتاب الله يعلو على هذا كلّه ويتكلم بالمنطق الصارم والموضوعية الحاسمة التي لا تحابي ولا تداجي، فيضع الأمور في مكانها الحق...

حتى لقد صرنا نجد بعض المفكرين المعاصرين من القوميين

العلمانيين، يلمّعون في هذا العصر وينفون عنه الخبائث والسوءات، لكي يخرجوه للناس وقد بدّلت ثيابه الملأى بالشروخ، بحجة أن العرب أمة متميزة، قديرة على الارتفاع عن الصغائر، جديرة بأن تحمل رسالتها الإنسانية في كل زمن ومكان إلى البشرية كافة...

بل لقد ذهب بعض عرّابيهم من النصارى إلى القول بأن الإسلام ما هو إلا حلقة فحسب من حلقات انبعاث هذه الأمة، سبقته وأعقبته حلقات وحلقات... وفي كل الأحوال فإن العرب يحملون خصيصة التفوّق على كل صنوف الشرّ والأذى، ويصعدون في المراقي حاملين رسالتهم الخالدة على مرّ العصور.

إن القرآن الكريم يحسم الأمر بكلمات قلائل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الضلال المبين...

وتلك هي بإيجاز شديد الصفة المطابقة تماماً لما كانت عليه الأمة العربية قبل الإسلام... ضلال في العقيدة... ضلال في التصوّر... ضلال في السلوك الفردي والاجتماعي... ضلال في القيم الخلقية... ضلال بكل ما في الكلمة من معنى... إذا أردنا أن نسلّم بمقولات القرآن، ومقولات القرآن تجيء دائماً مطابقة للواقع التاريخي، لأنها من علم الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء... والذي يبدو أن الفارق بينه وبين علم العبيد شاسع... شاسع، لا ينطوي على أي مجال للمقارنة على الإطلاق...

وبمجرد رجوعنا إلى كتاب (الأصنام) لابن الكلبي؛ فإننا نجد فيه من التواءات التصوّر والعقيدة والسلوك الديني ما يثير القرف والاشمئزاز في نفوس القرّاء...

فمن هذا المستنقع الآسن... من هذه النقرة الضيّقة التي يختنق فيها العقل والروح والوجدان... من هذه الخرائب المهجورة التي يعشش فيها التخلف، والسخف، والسذاجة... جاء الإسلام لكي يخرج بالعربيِّ إلى آفاق التوحيد، ونضج التصوّر، ونقاء الاعتقاد، فيحرر عقله وروحه ووجدانه، ويعيد تشكيلها من جديد...

وبمجرد تذكُّرنا ما كانت تفعله القبائل العربية من غزو بعضها لبعض، واعتداء بعضها على بعض، وسلب ونهب وقتل بعضها لبعض...

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد الّا أخانا

وما فعله الإسلام بقيادة رسول الله (ﷺ) من توحيدها، بمشيئة الله وحده، فيما هو من قبيل المستحيلات التاريخية، حتى إن القرآن الكريم يخاطبه قائلاً ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الأنفال: ٦٣] ويخاطب الأمة قائلاً: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبمجرد قراءة الشعر (ديوان العرب) وذاكرتهم الحادة، وكشفه عن عوراتهم السلوكية على مستوى شرب الخمر، ولعب الميسر، والزنى... و... و...

والحالة النظيفة الوضيئة التي نقلهم إليها هذا الدين...

تتبيّن لكل ذي عينين دلالةُ (الضلال المبين) الذي كان العرب عليه في جاهليتهم... أما الذين طمست ظلمات التعصّب على عيونهم، فمنعتهم من رؤية الأشياء على حقيقتها؛ فإن لهم أن يقولوا ما يشاؤون... فيما لا وزن له على الإطلاق!!



18

هذا يكفي للإيمان المطمئن بالله

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ٩].

جلّ جلال الله... فإن في هذه المعجزات الخلقية الثلاث ما يكفي للإيمان المطمئن بالله ﷻ، وبكتابه العظيم...

فأية نعمة كبرى في الرؤية... وفي القدرة على الكلام الواضح المبين... وفي تذّوق الطعام؟ وأي تركيب مدهش تنطوي عليه العينان بشبكيتيهما وقرنيّتيهما وعدساتهما والملايين العشرة من الحجيرات الضوئية في تكوينهما... وقدرتهما على قلب الصورة المعكوسة إلى وضعها الطبيعي في منظور الإنسان... وعلى التحسّس العجيب للألوان، وعلى النفاذ إلى أكبر الأشياء وأصغرها والإحاطة بها علماً؟

ومَنْ غيرُ الله ﷻ الذي خلق هذا العضو اللين الذي يمارس الكلام ويتذوق الطعام بمرونة مطلقة، دونما تعثّر أو ارتطام في صندوق الفم المليء بالأسنان الحادة والساحقة؟!

ومَنْ غيرُ الله ﷻ من يشقّ هاتين الشفتين بجماليتهما وقدرتهما في الوقت نفسه على ممارسة اثنتين من أخطر وظائف الإنسان الفيزيولوجية: الكلام والطعام؟

إن (تشارلز دارون) الذي يقال أنه كان زعيم، بل مؤسس، الإلحاد العلمي في العالم، يعترف في مذكراته الشخصية بمعجزة العين فيقول: (كلما فكرت في تركيب العين البشرية هزتني قشعريرة... فمن قال أني ملحد بالله؟!).

وإذا كانت العينان تمارسان الشيء نفسه الذي تمارسه جلّ الحيوانات الأدنى منزلة من الإنسان... فماذا يقال عن اللسان والشفتين، اللتين منحتا الإنسان القدرة المتفوقة على الكلام الواضح المبين، الذي يتميز عن سائر الكائنات، والذي هو أحد تأسيسات الفعل الحضاري للبشرية كافة، والذي يقسم به الله ﷻ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

حقاً إن الإنسان، كما يصفه الله (ظلوم كفار)، وهو يقف وجهاً لوجه أمام إبداعية الله في خلقه بهذا التناسب الجمالي والعملي المحكم، فيشيح عنه، ولا يكلّف نفسه عناء كلمة شكر يتوجه بها إلى الخالق العظيم الذي صنع هذا كله...

إن هذا الذي يحدثنا عنه كتاب الله بخصوص العينين واللسان والشفتين، ما هو إلا غيض من فيض من نعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى على هذا الإنسان... ويكفي أن نتذكر أنه من دون سائر الكائنات التي تحيا على هذه الأرض، قد حرّر جسده من الانحناء على الأرض والسير على أربع، بحيث يظل قائماً مستوياً ويداه متحررتان من شد الأرض... يداه اللتان تمثلان الأساس في الفعل الحضاري... ليس هذا فحسب بل إنه حرّر الكفين وما تنطويان عليه من أصابع من شد الأظلاف والأخفاف، وجعلها تتحرك بحرية قبالة الإبهام القدير على

الحركة في كل اتجاه... وتلك هي معجزة أخرى ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]... ذلك أن حركة الإبهام والأصابع التي تمسك بالقلم، والمعول، وتضغط على أزرار الحاسب الإلكتروني؛ لهي كذلك من تأسيسات الفعل الحضاري للإنسان في هذا العالم.

ومع تحرير الجسد، والأيدي، والأصابع؛ فيما جعل عالم الحيوان لا يقدر على ممارسة الفعل الحضاري، أو بلوغ حافاته الدنيا، حتى لو عاش ملايين السنين... هنالك عشرات ومئات المعجزات الخلقية في تكوين الإنسان الفيزيولوجي، ووظائف أعضائه المتقنة الصنع... المرسومة بعناية... والمتحركة في كل حلقاتها صوب غاياتها الأساسية في تمكين الإنسان من أن يكون كائناً متحضراً، قديراً على الأداء في اتجاهاته كافة...

فإذا أضفنا إلى هذا كلّه معجزة المعجزات المتمثلة بالقلب والدماغ، وما يؤديانه من وظائف مدهشة في حياة الإنسان... وما ينطويان عليه من تركيب، وتقسيمات، وفاعليات، وغرف عمل وسيطرة؛ لا يمكن بحال من الأحوال أن تجيء نتيجة الصدفة... أو ما يسمى بالنشوء والارتقاء، وقوانين الصراع من أجل البقاء فيما لا يكاد يفسّر شيئاً على الإطلاق...

أدركنا كم أغدق علينا الله جلّ في علاه من نعم لا تعدّ ولا تحصى؟!. وكم كنا نحن أبناء آدم عاقّين لهذا الخلّاق المنعم؟!. فلم نقدّرها حق قدرها، فنذعن لكلمة الله، ونخرّ ساجدين لأفضاله علينا، وما أعظمها من أفضال!...

حقاً إن الإنسان لظلوم كفار!!

١٩

بين الغيب وبين الرجم بالغيب

إن الذين يرفضون الغيب من الملاحدة والعلمانيين، لا يفرّقون بينه كبطانة للكون والعالم والإنسان... كبعد آخر مؤكد للوجود، بل كقاعدة لهذا الوجود، في أسبابه ومعطياته ونتائجه وغاياته النهائية، وكعلم يقيني مطلق خاص بالذات الإلهية، وبين الرجم بالغيب، أي الموقف المتخبط، الضال، الذي ينطوي على قبول النتائج دون أسبابها، والغايات دون مقدماتها، واعتماد الأساليب الملتوية النقيضة - ابتداء - للعلم، والمنهج، والمنطق، والتجريب، فيما يقودهم في كثير من الأحيان إلى الضرب على غير هدىً في تحليل الظواهر والأشياء، والوصول إلى استنتاجات لا تقوم على أي أساس من العلم اليقيني الصحيح.

والقرآن الكريم يهاجم بصراحة هذا الأسلوب الملتوي، قبل وبعد أن يرفضه أنعامُ القرنَيْن الأخيرَيْن من الملاحدة والعلمانيين وتجار المبادئ والأفكار المزيفة: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] وبالتالي فهو يرفض كل ما يتمخض عن (الرجم بالغيب) من نتائج ومعطيات، ومن مذاهب ومبادئ وعقائد

وضعية اتهمها الخصوم بأنها معلّقة في سماء الأحلام، الغير ممكنة التطبيق على أرض الواقع، بسبب من قيامها على الظنون والأوهام والتخمينات الخاطئة، والأحلام، والمثاليات...

وكلنا نذكر التهمة التي وصم بها مهندسو الماديتين الديالكتيكية والتاريخية، فلسفة (هيغل) عندما أطلقوا عليها لقب (الفلسفة المثالية) التي تمشي على رأسها، أي تحاول التعامل مع الظواهر والأشياء بشكل معكوس، واستبدالها بالواقعية الاشتراكية التي تمشي على بطنها بحثاً عن لقمة العيش، وكأن الحياة لا تتجاوز إحدى اثنتين: العقل أو المعدة!! كما أطلقوا على الاشتراكيات التي لم تُسلم قيادها لهم اسم (الاشتراكيات الطوباوية)، أي المثالية التي لا تستطيع أن تنزل إلى أرض الواقع... وهاجموا الغيبيات وحاولوا إلغاءها نهائياً من القواميس.

وثمة فرق كبير شاسع بين (الغيب) و(الغيبية)، وفق هذه الرؤية الضبابية التي لا رصيد لها في عالم الواقع، وبين الغيب الذي يعدّ قاعدة التأسيس الإيماني في هذا العالم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

ذلك أن الله ﷻ الذي لا تدركه الأبصار هو من الغيب، وظاهرة النبوّة التي تتلقى التعاليم عن الله ﷻ عبر الكتب المنزلة من السماء هي من الغيب... والجنة والنار هي من الغيب... والملائكة والجان والشياطين هم من عالم الغيب... والقدر خيره وشرّه هو من الغيب... الخ... الخ... بل إنه حتى الظواهر العلمية

كالطاقة والحركة والضوء والجاذبية هي في ماهياتها وليس في ظواهرها من الغيب.

ولقد وردت كلمة الغيب بهذه الدلالات فيما يزيد عن الخمسين موقعاً في كتاب الله... وكلها تؤكد المفاهيم نفسها التي تتعارض ابتداء مع ما ذهب إليه الغربيون وأذنابهم في تفسيرهم للغيب...

ولكن إذا كان القرآن الكريم قد بنى التصوّر الديني على أساس الغيب، باعتباره المصدر اليقيني للمعرفة، فإنه أكد في الوقت نفسه على ضرورة وأهمية (التجريب)، واعتماد (الحواس)، وتعميق صلة (العقل) بما حوله في حقول النفس والطبيعة والعالم والحياة، لاكتشافها وتسخيرها لخدمة الحضارة البشرية ورقيِّها، وتحقيق فكرة (استخلاف) الإنسان على الأرض من أجل أداء دوره الحضاري فيها .

ونحن نجد هذه (المسؤولية) الملقاة على عاتق الحواس والعقل في الآية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وهناك ما يزيد على خمسين وسبعمائة آية ـ على وجه التقريب ـ دعت المسلمين إلى ضرورة اعتماد الطاقات الحسّيّة والعقلية والتجريبية، لاكتشاف قوانين الطبيعة والحياة وتسخيرها لخدمة الإنسان؛ فيما قاد المسلمين إلى اكتشاف منهج البحث الحسّي التجريبي، الذي تدين له حضارة الغرب المعاصرة بالكثير الكثير، فيما يؤكده كبار مؤرخي العلم من الغربيين أنفسهم، من مثل الدوميلي الفرنسي وجورج سارتون الأمريكي.

إن تأكيد القرآن الكريم على الإيمان (بالغيب) لم يمنعه من

التأكيد على التجريب والاختبار والنشاط العقلي والممارسة العملية... بل على العكس، يتساوق معه، يوازيه ويعتمده في تعميق الإيمان بالغيب كتفسير يقيني للوجود الكوني والبشري على السواء، بما فيه من دقة وضبط وتوافق ونظام... يؤكد هذا أن ما قدّمه القرآن الكريم حول بعض القوانين والسنن الكونية من معطيات (في حقول الحياة والطبيعة والفلك... الخ) جاءت الكشوف العلمية ـ أخيراً ـ لكي تعززها وتوضح أبعادها التي خفيت على أفهام أجيال كثيرة في الماضي... وهذا هو مصداق الآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].



٢٠

ولهذا ضرب القرآن بها مثلاً!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

ويوماً حدّثني أحد المتشككين قائلاً: حقّاً إن البعوض يمثل مشكلة فلسفية!! فقلت له: كيف؟ أجاب: كيف تبرّر أسباب خلق هذا الكائن التافه الصغير الذي طالما أقلقنا خلال النوم، وطنّ في آذاننا الساعات الطوال، وامتصّ دماءنا... ولم يدعنا نغفو لحظة واحدة... هل ثمة مبرّر لخلقه على الإطلاق؟

قلت له: ارجع إلى الآية القرآنية التي تتحدث عن هذا الكائن الصغير فستجد الجواب على سؤالك المحيّر، والإجابة على ما تسميه معضلة فلسفية، وتلوت عليه الآية المذكورة، فلم يكد يفقه منها شيئاً!! وأعاد القول بأنها معضلة ليس لها من جواب شافٍ!!

أجبته: ولهذا ضرب القرآن الكريم بها مثلاً، وجعل الناس ينقسمون إزاءها إلى صنفين: المؤمنون الذين «يعلمون» أنه الحق من

ربهم، والكفار الذين يقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟... ولاحظ معي صفة «العلم» التي ألحقها بالمؤمنين، وكأنه يريد أن يقول: إنه بالإيمان والعلم معاً يمكن أن نعثر على الجواب...

الإيمان بالتسليم المطلق لحكمة الله ﷻ في الخلق... بدءاً بأكبر الكائنات الحية حجماً وانتهاءً بأصغرها... والعلم الذي سيكشف لنا حيناً بعد حين أبعاد الحكمة من خلق كائنات كهذه...

هذا إلى أن البعوض، وكل الحشرات المؤذية الأخرى، تمثل تحدياً للإرادة البشرية وتتطلب استجابة من نوعٍ ما... وبمجموع هذه الاستجابات تتشكل الحضارات البشرية... إنني أتذكر هنا ما ذكره المؤرخ البريطاني المعاصر (أرنولد توينبي) من أن الحضارة المصرية التي هي واحدة من أقدم الحضارات في العالم، ما كانت لتتحقّق لولا قدرة المصريين القدماء على الاستجابة لتحديات البيئة المصرية الصعبة المترعة بالمستنقعات، والبعوض، والملاريا... فشمروا عن ساعد الجدّ، وطمروا المستنقعات، ولاحقوا البعوض، وأوقفوا زحف الملاريا، وصنعوا حضارتهم المصرية تلك...

وأتذكر أيضاً كيف أن الصين أعلنت يوماً عن حملة شاملة لمحو الذباب المتكاثر في البيئة الصينية، وابتكرت لذلك الوسائل، وأخذت بالأسباب، وأعلنت عن سلسلة من النشرات التي تلقفها الصينيون ولاحقوا الذباب وكادوا أن يأتوا عليه...

وغير هذين المثالين عشرات بل مئات الأمثلة، ليس أقلها خطراً الإفادة من سموم العقارب والحيات لتصنيع الأمصال المضادة للسم ونجاحها المدهش.

ثم إن هذه الكائنات التافهة، كما قد يخيّل للبعض، كشفت المتابعات العلمية عن تركيبها الحيوي المدهش، في صنعها وتصميميها، بما في ذلك خراطيهما التي تعد بالعشرات والتي تصنّف وفق وظائفها، فبعضها للّمس، وبعضها الآخر للامتصاص، وفئة ثالثة للتحليل، فكأنها معمل كيماوي في أقصى درجات التعقيد.

والقرآن الكريم عندما يقول (فما فوقها)؛ فإن دلالة الكلمة تذهب إلى الكائنات الأصغر منها حجماً، والتي تحتوي هي الأخرى، بقوّة الكشف العلمي، على تركيبها المدهش!!

إن عالم الطبيعة ينطوي على شبكة من التوازنات الحيوية، من أجل إدامة الحياة وتوفير لقمة العيش للكائنات جميعاً... فلا يقُلْ أحدٌ بأن الكائن الفلاني لا حكمة من خلقه وحاشا لله... وبمجرد متابعة لبرامج (الناشيونال جيوغرافي) سيعرف الإنسان كم أن لكل كائن حكمة مؤكدة من خلقه...

وثمة فارق كبير بين أمة استفزّها الذباب فقررت أن تعلن الحرب عليه، وبين أمة أخرى تركته يتكاثر في ديارها. ويتساقط على أطعمتها فيلوّثها بالميكروبات، ويسوق آلاف المواطنين إلى زنزانات الأوجاع والأمراض!!

أكان يمكن أن يحدث هذا لو أن الإنسان أدرك الحكمة التي تكمن وراء خلق البعوض والذباب؟!



٢١

تلك هي إحدى معجزات هذا الكتاب

في عشرات المواضع القرآنية تأكيد على البرّ بالآباء والأمهات، وهو في العديد من الآيات يجيء بعد التأكيد على وحدانية الله وعدم الإشراك به، والتي هي قاعدة هذا الدين وأساسه المتين ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٤].

وهذا وحده يكفي للقول بأن القرآن الكريم منزَّلٌ من عند الله، ويدحض فرية المفترين بأنه من صنع محمد (ﷺ)... ذلك أن

محمداً عاش يتيماً... ولد بعد أن كان أبوه عبد الله قد غُيِّب في التراب... ولم يكد يتفتح وعيه على الحياة حتى لحقته أمة آمنة بنت وهب... فأحرى - بالمعايير النفسية والاجتماعية - أن ينشأ وقد جفّت عواطفه إزاء الأبوة والأمومة.. بل - وبالمعايير نفسها - قد ينقلب على الأب والأم، ومن ورائهما الكثير من الثوابت والمعطيات... كما ثبت لدى العديد ممن فقدوا آباءهم وأمهاتهم في مراحل الطفولة...

هذا التأكيد المتواصل على البرّ بالآباء والأمهات... هذه اللمسات الحانية في التعامل معهم... هذه الدعوة الصريحة بالإحسان إليهم... وخفض جناح الذل من الرحمة لهم... هذا الدعاء الصادر من القلب بأن يرحمهما الله ﷻ جزاء سهرهما على تربية الأبناء... ثم هذه التوصية الرقيقة الشفافة بألّا تصدر عن الأبناء أية كلمة أو عبارة قد تجرح إحساسهما... بما فيها كلمة **(أف)**... وألا يقولوا لهما إلّا قولاً كريماً...

مَنْ مِنَ الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم وهم بعد صغار لا يعون من الدنيا شيئاً؛ يمكن أن يملكوا هذا الحشد المدهش من صيغ التعامل العالي... الرقيق... الشفاف... المترع بالنبل والوفاء والحساسية تجاه الآباء والأمهات؟!

إنها يقيناً معطيات تخرج بالكلّية عن خبرات أولئك الصغار، بعد أن يشبوا ويكبروا ويلامسوا وقائع الحياة... بل إنها معطيات تتناقض ابتداء مع التكوين النفسي والاجتماعي للطفل اليتيم الذي لم يتجرع حنان الأم ولا عطف الأب...

وتلك هي إحدى معجزات هذا الكتاب القادم من عند الله ﷻ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... الله جلّ في علاه... خالق الإنسان ومصمم البيئة الأسرية التي ولد فيها، وراح ينمو ويشبّ عن الطوق... وهو بذلك أدرى بخلقه، وأعلم بطبيعة وأبعاد المشاعر الفيّاضة للآباء والأمهات تجاه أبنائهم، وضرورة أن يجيء موقف الأبناء موازياً لهذا العطاء الدافق، مكافئاً إياه محبةً وتقديراً واعتزازاً وشفقةً وعطفاً وإحساناً... وإلّا فهو العقوق المرفوض والمنكر، والمناقض ـ ابتداءً ـ لطبائع الأشياء...

فماذا يقول المشككون والمستشرقون بهذا المثال القرآني المدهش عن التصادي الفعال بين الآباء والأمهات وبين أبنائهم؟ والذي يجيء في كتاب يتوهمون أنه من صنع محمد (ﷺ)، ومحمد نشأ يتيماً بلا أب ولا أم؟

يذكِّرني هذا بالعديد من الاستنتاجات المضلّلة التي أدان بها أولئك المشككون والمستشرقون، ومن قبلهم الجاهليون ورجال الدين من اليهود والنصارى... كتابَ الله بأنه من صنع الإنسان، وقالوا فيما قالوا، بأن تأكيد القرآن المتواصل على تعذيب الكفار بنار جهنم، إنما هو انعكاس للبيئة الصحراوية الملتهبة التي عاشها محمد (ﷺ) واكتوى بنارها... دون أن يلتفت هؤلاء مجرد التفاتة إلى أن في كتاب الله تعذيب بالزمهرير الذي هو نقيض الحرّ الشديد، وبعشرات الصيغ الأخرى التي تخرج عن كل ما ورد في قاموس الحرّ من مفردات... لن يتسع المجال لذكرها، ويكفي أن نحيل القارئ الجاد إليها في كتاب الله نفسه.

أما تناقضات الاستشراق الماركسي المقبور، وتلامذته من الشيوعيين العرب، فحدّث ولا حرج... لقد فسّر بعضهم الحركة الإسلامية بأنها جاءت كإسناد للطبقة الأرستقراطية التي تعرّضت للاهتزاز قبيل ظهور الإسلام، وذهب آخرون إلى أنه جاء ثورةً على هذه الطبقة وإسناداً للعبيد والكادحين... فيما يمثل إبحاراً بالاتجاه المعاكس تماماً للاستنتاج السابق...

وقس على هذه الترّهات عشرات الأمثال الضالة، المضلّلة، ومئاتها...



٢٢

عبث التوراة والإنجيل... وجلال القرآن

هذه واحدة من أهم العلامات الفارقة بين أكاذيب التوراة والإنجيل المحرّفة ومصداقية القرآن...

بمجرد إلقاء نظرة مقارنة سريعة على ما تقوله التوراة والإنجيل وما يقوله كتاب الله؛ يتبين بالوضوح القاطع أن ثمة أيدي ماكرة عبثت بالنصوص الأصلية للعهدين القديم والجديد، وحقنت فيهما حقنات من الأباطيل والترهات التي لا تليق بجلال الله سبحانه وتعالى منزل هذين الكتابين، ولا بجلال أنبيائه الكرام المعصومين من الزلّات والأخطاء، وأن ثمة بالمقابل حفظٌ إلهيٌّ للنص القرآني بتمامه وكماله، من أي تزييف أو تحوير أو زيادة أو نقصان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ولقوله ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

والمسألة ليست فقط في حفظ النصّ الإلهي أو تزييفه، وإنما في نسيج المعطيات، في أسلوبها ودلالاتها ومعانيها على السواء...

في احترام الثوابت الدينية، أو في الاستهانة بها...

في تقدير الأنبياء الذين تلقَّوْا هذه الكتب، أو امتهانهم والسخرية منهم...

في المناخ العام الذي يضع القارئ أمام الجلال القرآني، أو يرمي به في شبكة الرذائل والقباحات، التي لا يمكن أن تصدر عن الله ولا عن أنبيائه الكرام وحاشاهم...

ومن منا لا يذكر ـ على سبيل المثال ـ ما حدّثنا به العهد القديم (التوراة) عن النبي داود (عليه السلام) وكيف أن الأيام مضت، والسنون كرّت، ولم يتح له أن يخلّف ذكراً... فما كان من بناته إلّا أن تواطأن على أن يسقينه الخمر، وتحشر إحداهن جسدها في فراشه، لكي يسافحها فيخلف الولد الموعود!!

فأية سفالة مركّبة هذه بحق واحد من أكثر أنبياء بني إسرائيل نبلاً وشرفاً وعطاءً وتمكّناً... لنقرأ معاً ما الذي يقوله كتاب الله عن هذا النبي الفريد: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ

بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٦].

بدأ بأسلوب العرض، وصولاً إلى دلالاته ومعانيه، مقارناً بما قالته التوراة عن النبي نفسه، يجزم المرء أن القرآن هو كتاب الله، وأن التوراة المحرّفة هي كتاب الكهنة والفجرة والوضّاعين...

مريم أم السيد المسيح (عليه السلام) يقدمها القرآن في أجمل صورة وأكثرها طهراً ووضاءةً: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وتقدمها التوراة محاطة بألف ريبة وألف شكّ من خلال علاقتها المشبوهة بيوسف النجار (وحاشاها).

أيُّ فارق كبير هذا في تصوير هذه المرأة القدّيسة؟ فيما يرغم المرء على التساؤل عن موقف النصارى في العالم من المسلمين واليهود...

المسلمون الذين قدّم كتابهم هذه الصورة الوضيئة عن أم نبيهم (عليه السلام)، واليهود الذين يشككون بميلاد هذا النبي المعجزة الذي يقول عنه كتاب الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ألا يحتّم هذا أن يلتحم النصارى بالمسلمين وأن يعلنوا الحرب على إسرائيل الذين فعلوا الأفاعيل، وقدّموا المقولات الباطلة عن المسيح وأمه (عليهما السلام)؟

ولكن الذي يحدث هو العكس تماماً... فلماذا؟

هكذا يتساءل المستشرق الفرنسي المعروف (أميل درمنغهم) في كتابه عن (حياة محمد) دون أن يتلقى الجواب... والجواب

واضح بيّن كحدّ السيف، ويمكن أن يكون المتنبي قد اختصره ببيت شعري معروف واحد:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

إنه الالتواء النفسي والفكري، الذي يقود إلى مواقف ملتوية كهذه لا تستقيم وبداهات المنطق...

ومن قبل... في عصر الرسالة... كان وفد من بني إسرائيل قد اتجه من خيبر إلى مكة للقاء أبي سفيان، وتحشيد العرب المشركين واليهود ضد دولة الإسلام في المدينة، لكي يضربوا عن قوس واحدة ويستأصلوا دعوة الإسلام من الوجود...

أقام أبو سفيان للوفد الزائر وليمة دسمة ذبحت فيها الجزور وسفحت الخمور، وما لبث أن سأل زعماءَ بني إسرائيل: يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير من دينه؟ أجاب اليهود: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه!!

كان اليهود مستعدين لأن يزيفوا كل شيء، ويتجاوزوا منطقهم الديني نفسه في سبيل التودّد إلى الوثنية وتحريكها لضرب الإسلام... وفي المقابل نجد كيف أن المسلمين يتوحدون مع دينهم، فيهزّهم نبأ الهزيمة الساحقة التي مني بها الروم المسيحيون على أيدي الفرس الوثنيين، ويصيبهم بحزن عميق إزاء الفرح الذي غمر قلوب مشركي قريش، وتنزل آيات القرآن الكريم تتحدث عن الواقعة الحاسمة، وتؤكد الانتصار القادم الذي سيحققه المعسكر النصراني ضد أعدائه المجوس، حيث يفرح المؤمنون: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢

فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]. وقد تحققت النبوءة القرآنية التي لا تخطئ، وفي بضع سنين ألحقت القوات البيزنطية بقيادة هرقل هزيمة ساحقة بالقوات الفارسية... وغمرت الفرحة قلوب القلة المضطهدة في ظلمات الوثنية.

إذن فالمسألة ليست بالأمر الجديد... إن خصوم هذا الدين الذين يفترض فيهم الوقوف معه صفاً واحداً باعتبارهم أهل كتاب، مستعدون لوضع أيديهم بأيدي الملاحدة والدهريين، كيداً بهذا الدين ونبيّه الكريم...

وها هي ذي معظم الأعمال الاستشراقية تمرّ بهذا الاتجاه المعكوس... ولكن يبقى قبل هذا وبعده، أن شرف هذا الدين وصدق أتباعه مع عقيدتهم وأنفسهم، أنهم يتعاملون مع كتاب قادم من السماء، وأن خصومه يتعاملون مع كتب الفجرة والدَّجّالين!!



٢٣

دعوة للتوزيع العادل للزمن

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

هذه هي إحدى التعاليم القرآنية التي، على وضوحها، وتفصيلها، لم ينتبه إليها الكثير من المسلمين، فرموا بثقلهم باتجاه التلاوة والعبادة تاركين مطالب الجهاد والعمل... أو استهلكوا أوقاتهم وأنفسهم في العمل مهملين أمر العبادة والجهاد... بل إن بعضهم نسي حتى متابعة ضروراته الصحية منغمراً في العبادة أو العمل...

والآية الكريمة تتطلب ضرورة التوزيع العادل للزمن على هذه المطالب جميعاً، فلا ينصرف كلّه لواحدة منها تاركاً الأخريات معلقة سائبة...

يبدو أننا في عصور انسحابنا الحضاري ضيّعنا الإصغاء جيداً لمطالب المعادلات القرآنية، فضعنا...

فلو أننا انتبهنا جيداً لمنطوق هذه الآية الكريمة؛ لعرفنا كيف نوظف الزمن في تلبية عادلة للمطالب الضرورية جميعاً... فنتلو حيث تتحتم التلاوة... ونعمل حيث يتطلب العمل... ونجاهد حيث يتوجب الجهاد... ونعرف كيف نقسّم ساعات الليل والنهار تقسيماً عادلاً يقود إلى تغطية متوازنة للمطالب جميعاً...

فماذا لو عكف المسلم على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار... عزل نفسه عن الدنيا، وتفرّغ للتلاوة من أجل تحقيق أكبر قدر من الختمات القرآنية في الشهر أو الأسبوع، دون أن ينعكس ذلك على سلوكه، وفاعليته، وأدائه في ميادين الحياة كافة: الدعوية، والسلوكية، والثقافية، والجهادية؟

هل تجدي ثلاثون ختمة في الشهر؟ إن لم تحوّل ذلك الإنسان إلى **«قرآن يمشي على الأرض»**، حيث يكون التحقّق الموزون بمطالب الخطاب القرآني... وهل يتحقق ذلك إن لم يُعمل المسلم عقله وقلبه ووجدانه وهو يتلو آيات الله، من أجل أن يتشرّبها فتصير جزءاً من ثقافته وسلوكه ومياوماته؟

وماذا لو عكف المسلم الساعات الطوال على تلاوة القرآن، تاركاً مطالب العمل اليومي وضروراته، من أجل تلبية حاجاته الأساسية، وإضافة لبنات في بناء المجتمع الإسلامي وصيرورته؟

وماذا لو عكف المسلم على تلاوة القرآن، رافضاً الإصغاء إلى نداء الجهاد، حيثما توجّب الجهاد لمجابهة الخصوم، الذين يريدون

كيداً بهذا الدين، والذين لن يردعهم عن المضي في عداوتهم إلّا الجهاد؟

وماذا لو عكف المسلم على تلاوة القرآن، غير ملتفت إلى ما يحيق بجسده من أمراض وأوجاع قد تزداد بإهمال علاجها شراسةً وعنفاً، وقد تقود صاحبها إلى الدمار؟

إن القرآن الكريم ينبّه إلى ضرورة التوزيع العادل للزمن، أو توظيفه بشكل أدق، من أجل تغطية المطالب الأساسية للإنسان المسلم، الذي يتحتم أن تكون شخصيته حركية فاعلة في الاتجاهات كافة: يتلو ويعمل ويدعو ويجاهد ويربي... ويعنى بسويته الصحية... من أجل التحقق بهذا كله...

فلو أننا عدنا إلى كتب التراجم، التي تمثل أكثر المصنفات تأليفاً في تاريخنا الفكري والثقافي، وهي تترجم لحشود من المسلمين والمسلمات، عبر فترات زمنية متطاولة... فإننا سنقع على مئات بل ألوف من النماذج البشرية ممن عرفوا كيف يستجيبون لمطالب الآية المذكورة، فيسعون إلى توظيف أعمارهم بالشكل العادل لتلبية المطالب الضرورية كافة... فإذا بهم يعكفون على التلاوة الساعات الطوال، لكنهم لم ينسوا أن يخصصوا ساعات أخرى للعمل، أو الجهاد، أو القراءة، أو التصنيف، أو تلبية المطالب الأسرية والشخصية وحتى الصحية... وهم بتصرفهم هذا أعانوا على تغذية الفعل الحضاري الإسلامي بالمزيد من المنجزات، ومكّنوا الحضارة الإسلامية من أن تنهض قائمة، وتستوي على سوقها، وتتفوق على كل الحضارات الأخرى...

ويوم أن مال الميزان... وفقد المسلمون حاسّة توظيف الزمن وتوزيع مساحاته بالشكل العادل على كل الفاعليات الضرورية... بدأ منحنى الإنجاز الحضاري الإسلامي بالانحدار، وراح يتزايد مع الأيام حتى بلغنا الوضع الذي لا تحسدنا عليه أمة من الأمم...

بينما في الطرف الآخر، راح الغربيون يتسابقون في توظيف الزمن، وفي الاستجابة المتوازنة لمطالب الحياة الضرورية... فتفوقوا وأمسكوا بنا من رقابنا...

ومرةً أخرى... فإن القرآن الكريم يطرح جملة من المعادلات التي تجيء بمثابة تعاليم في غاية الأهمية، والتي يشكل تنفيذها في واقع الحياة ضرورة من الضرورات، إذا أردنا ـ بالفعل ـ أن يكون لنا مكان في خرائط العالم...



٢٤

طريقتان في التعامل مع القرآن

هنالك طريقتان للتعامل مع القرآن الكريم... تقوم **إحداهما** على التلاوة الاعتيادية لإنجاز ختمات أكثر، دون أن يكون لهذه التلاوة المسرعة مردود عقلي أو وجداني يذكر... وتقوم **الأخرى** على الوقوف بتأمّل إزاء آية آية أو مقطع مقطع، وإعمال العقل فيه، ومعايشته، والتحقق به... وذلك قد يكون الأجدى، رغم أن القراءة السريعة التي تهذّ على سطح القرآن هذا، تمنح الأجر الجزيل لأصحابها...

وكلنا جرب هاتين الطريقتين، ولكننا في الثانية كنا نستذوق، ونعيش، ونمارس الاكتشاف، ونسعى إلى التحقق به، فنحسّ بلحظات من السعادة ترفعنا إلى السماء، وتقدّم لنا من طعوم القرآن وفاكهته المدهشة ألواناً وألواناً...

وطالما قلت لطلبتي في الدراسات العليا: حاولوا أن تجرّبوا بأنفسكم التعامل مع القرآن، ليس من أجل **ختمات أكثر**، وإنما من أجل اكتشاف شبكته المحكمة ومعجزته المدهشة في هذا الموضوع أو ذاك...

فمرةً يمكن أن تخصصوا قراءة القرآن كلّه لمتابعة ما يريد أن

يقوله بخصوص قوانين الحركة التاريخية، والفقه الحضاري... وإذا استطعتم أن تنقلوا على دفاتركم الخاصة كل الآيات المتعلقة بالموضوع، ثم تعودون لتصنيفها وفق مفرداتها الأساسية، فإنكم ستجدون أنفسكم قبالة تفسير للتاريخ، ولقوانين حركته، ولمفاهيم الفقه الحضاري، أكثر إحكاماً، وأشد دقةً، وأعمق توازناً وارتباطاً من كل فلسفات التاريخ الوضعية المترعة بالمآخذ والثقوب، والتي يطرد بعضها بعضها الآخر من الساحة ليحلّ محلّه... وتبقى المعطيات القرآنية بمثابة المعايير العادلة والثابتة التي يمكن أن نحيل إليها كل الفلسفات، ونقيسها بها لتبيّن مدى مصداقيتها، أو للكشف عن عوارها وثغراتها وثقوبها التي لا تعدّ ولا تحصى...

ذلك أننا في الحالة الثانية نتلقى قيماً وموازين تجيئنا من فوق... من الله ﷻ ذي العلم المطلق، والذي لا يأسره ـ وحاشاه ـ زمن أو مكان، ولا يؤثر في أحكامه ميل أو مصلحة أو هوى... بينما في الحالة الأولى سنتعامل مع الأهواء والظنون والميول والانحرافات والأمزجة... مع مفكرين مأسورين في حيثيات الزمن، وحدود المكان، أي في مقولات التاريخ ومعطيات الجغرافية، فتجيء قيمهم ومعاييرهم مهزوزة، قلقة، نسبية، غير قابلة للاستمرار...

وطالما ذكرت طلبتي بالفارق الهائل بين رؤى الوضعيين القائلة بنهاية التاريخ... سواء على الطريقة الماركسية بتسلّم الطبقة البروليتارية حكم العالم... أو الطريقة الأمريكية الليبرالية التي قال بها فرنسيس فوكوياما، والتي ترى الحالة الليبرالية بقيادة أمريكا هي قمة الحركة التاريخية، ومستقرها الأخير. ولقد سقطت النظرية

الماركسية وتطبيقاتها الشيوعية، وخرجت من التاريخ... أما فوكوياما فقد وجد نفسه، أمام ضغط الحقائق التاريخية يتراجع بعد سنوات قلائل عن إعلانه ذاك، ويغيّر في معادلاته، ويبدّل فيها من أجل جعلها أكثر انسجاماً مع مطالب الحركة التاريخية التي ترفض أسرها بنمطية واحدة...

أما في كتاب الله؛ فإنكم ستكتشفون قيماً ومعايير علمية صارمة لا تقبل نقضاً ولا جدلاً... من مثل مبدأ التداول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ومبدأ التغاير: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] ومبدأ التدافع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] بمعنى أن التاريخ لا يمكن أن يتوقف وأن حركته ماضية إلى أهدافها حتى اليوم الأخير الذي يسبق القيامة...

في المادية الديالكتيكية يفسّر النشوء والتنامي الكوني بعيداً عن مقولات الدين والإيمان، حيث يتم التنكر للوجود الإلهي وفاعليته في الكون، ويفسّر التطور على أساس أن المتغيرات الكمية، تتحول إلى متغيرات نوعية... كيف؟ ليس ثمة تفسير لذلك على الإطلاق، وكما يقول الناقد الإنكليزي (الكساندر غراي): إننا لو جئنا بجذع شجرة وألقيناها في الغابة بانتظار أن يتحول، دون إرادة فوقية، إلى منضدة ذات قوائم أربع، ومجرات، وسطح أملس جاهز للكتابة؛ فإننا لن نعثر على المطلوب حتى لو انتظرنا ملايين السنين... إنها بتعبير الرجل، نكتة سخيفة لا يمكن أن يقبلها عقل!!

أما في المنظور القرآني؛ فإن الحركة الكونية تتشكل وتتنامى في

إطار إيماني، حيث تصير إرادة الله ﷻ هي الحكم الفصل في بدء الحركة وصيرورتها، والمصير الذي تؤول إليه في نهاية المطاف...

ففي هذا المنظور تبدأ الحركة الكونية بكلمة الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ثم ما تلبث أن تعقبها حركة التوسّع: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فنحن إزاء عملية اتساع تؤكده الدراسات الفيزيائية والكوزمولوجية، كما تؤكده معطيات أينشتاين عن (الكون المتسع) ومنحنياته الممتدة إلى مسافات لا يعلم مداها إلا الله ﷻ.

وبإزاء الفرش الكوني، وبمرور الزمن، وعبر مديات متطاولة؛ تبدأ عملية اللمّ المعاكسة التي تؤذن بنهاية الكون، وإعادته إلى وضعه السابق يوم تشكل أوّل مرة: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والله ﷻ حين يقسم بـ ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٦] إنما يتحدث بإعجازه المدهش عن جانب من عملية اللمّ أو الكنس، كما تؤكده أحدث الكشوف الكوزمولوجية.

وغير هذين الشاهدين، هنالك العشرات من الشواهد القرآنية على المصداقية المطلقة لقوانين الحركتين المادية والاجتماعية... فقط لمن عرف كيف يفتح عينيه وقلبه جيداً وهو يقرأ في كتاب الله...



٢٥

ما الذي يدل عليه هذا؟

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

في الآية المذكورة يحذّرنا كتاب الله مرّتين، ويأمرنا أن نأخذ حذرنا من مكر الخصوم، وفيم؟ في الصلاة التي يفوّض فيها المسلمون أنفسهم وحياتهم ومصيرهم لله جلّ في علاه... ويفترض فيها كذلك أنها تمنح غطاءً إلهياً للمصلّين!!

فإذا كان هذا مؤكداً في واحدة من أكثر الحلقات الإسلامية ارتباطاً بالله ﷻ... فكيف في سائر الحلقات الأخرى، السياسية والاجتماعية والاقتصادية... الخ... خاصةً ونحن نعيش الآن زمن المكر الدولي بنا، وتآمره علينا، ووضعه الشباك والأفخاخ في طريقنا... لحظة بلحظة ومتراً بمتر؟

أفلا يتحتم علينا أن نتعلم الدرس جيداً؟

ومع ذلك فإن أمتنا وجماعاتنا وأفرادنا لا يعطون هاتين المفردتين: (المكر، والحذر) أي اهتمام، ويتركون ظهورهم ومقدّراتهم ومصائرهم مكشوفةً للأعداء... ويريدون ـ مع ذلك ـ الانتصار عليهم...

فوالله إن لم نتعلم أن نمكر بمن يمكرون بنا، وأن نأخذ أقصى درجات الحذر من لدغات الأفاعي؛ فلن نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح للخلاص...

إن كلمة (مكر) بمفرداتها واشتقاقاتها المختلفة، ترد في كتاب الله في خمسة وأربعين موضعاً، بعضها يتحدث عن مكر الماكرين من بني الإنسان، وبعضها الآخر يتحدث عن مكر الله ﷻ بهؤلاء... وهي آيات تحمل دلالتها الواضحة في اثنتين:

أولاهما: أن الحياة الدنيا، في سياقاتها كافة، مترعة بالمكر...

وثانيتهما: أن الله ﷻ يتولى المكر بهؤلاء الماكرين، ويحبط، بإرادته التي لا رادّ لها، كيدهم ومكرهم...

أفلا نتعلم من هذا؟

إذن لنقرأ بعض هذه الآيات في سياقيها المذكورين: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [النحل: ٤٥]، ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى

كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٖ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٤٣].

أما في السياق الثاني، فهذه بعض آياته: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد: ٤٢]، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرٗا وَمَكَرْنَا مَكْرٗا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ [يونس: ٢١].

والخلاصة أن المكر الإلهي يؤول دائماً بالمكر البشري إلى الانحسار والخذلان، كما في دلالة هذه الآيات.

والكيد هو صنو المكر، وهو يرد في كتاب الله ـ كذلك ـ في سياقين يتحدث أولهما عن كيد الكائدين من بني الإنسان، وبعضها الآخر عن كيد الله سبحانه وتعالى بهؤلاء... ولنقرأ بعض هذه الآيات في سياقيها: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ [يوسف: ٥]، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٩]، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفّٗاۚ﴾ [طه: ٦٤]، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾

[يوسف: ٢٨]، ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٦]... الخ.

أما في السياق الثاني، فهذه بعض آياته: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]، ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥]، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

ها هنا أيضاً يحيط الكيد الإلهي بالكيد البشري فيحبطه ويخرجه من دائرة العمل...

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يمكر ويكيد... أفلا نتعلم نحن كأمة مستخلَفة في هذا العالم، شاهدة على البشرية؛ أن نمكر بخصومنا ونكيد لهم قبل أن تنزل سكاكين مكرهم وكيدهم فتقطع رؤوسنا، وتكفّنا عن المهمة الكبرى التي أنيطت بنا؟

وأتذكر بهذا الصدد ذلك الجدل المحتدم بين الإسلاميين وخصومهم، وبينهم وبين أنفسهم، حول ما يطلق عليه اصطلاح (التفسير التآمري للتاريخ)، فهنالك من يبالغ في هذا التفسير وينزله على كل صغيرة وكبيرة، مما يشهده عالم الإسلام عقداً بعد عقد، وسنةً بعد أخرى، ويوماً بعد يوم... وهنالك من يرفض رفضاً قاطعاً الأخذ بهذا الرأي ويقول: إنه لا تآمر ولا وهم يحزنون!!

والمفتاح يكمن دائماً في ترك مبدأ (إما هذا أو ذاك)، واستبداله بمبدأ (هذا وذاك)، الذي يضع الأمور في نصابها الحق ويغنينا عن كل جدل أو نقاش... فها هنا نجد كيف أن كتاب الله

يؤكد على (المكر) و(الكيد) في عشرات الآيات، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه على أن هذا المكر والكيد ليس قدراً أن يمضي إلى نهايته المحسوبة... وأن بمقدور أولئك الذين يراد بهم الكيد والمكر... أن يردّوا... وأن يخرجوا منتصرين...

نعم إن هنالك بعداً تآمرياً في التاريخ البشري، والتاريخ المعاصر تحديداً... وما أكثر المؤامرات التي دُبّرت ضد هذه الأمة بليل، وألحقت بها الهزائم والانكسارات...

فلو أنها فتحت أعينها جيداً على ما يراد بها، وأخذت بالأسباب، لما كان هذا الذي كان... والمفتاح دائماً نجده في كتاب الله...



٢٦

في إشكالية التمايز
بين الشعوب وبين الذكر والأنثى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]...

هذه واحدة من مبادئ القرآن التأسيسية في الحياة البشرية، والتي تؤكد على فكرة (التنوّع) بين الأمم والأقوام والجماعات والشعوب، وتلغي مقولات (نهاية التاريخ)... كما تؤكد على فكرة (التنوّع) بين الذكر والأنثى، وتلغي مقولات المؤتمرات الخاصة بالمرأة في بكين... والقاهرة... و... و...

وكلتا النظريتين بخصوص نهاية التاريخ، ومساواة المرأة بالرجل، تسعى إلى تغيير خلق الله، وتقود الإنسان إلى التعاسة والشقاء...

ذلك أن إلغاء التمايز الثقافي والاجتماعي بين الأمم والأقوام والجماعات والشعوب، ومحاولة صبّها في قالب واحد، سواء على الطريقة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي المنحلّ الذي خرج لهذا السبب ـ ولغيره من الأسباب ـ من التاريخ، أو على الطريقة

الرأسمالية الليبيرالية في أمريكا، والتي نظّر لها المفكر الأمريكي فرنسيس فوكوياما، ثم ما لبث أن وجد أن إرغام الأمم والشعوب على التخلّي عن خصوصياتها الثقافية والاجتماعية، للحاق بالنموذج الليبرالي الأمريكي، أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً، ولذا قام بعد سنوات قلائل من إعلانه عن نظريته تلك، بجملة من التحويرات التي أعطت للأمم والشعوب هامشاً واسعاً من التنوّع والتغاير.

والذي حدث في الاتحاد السوفياتي أن حشود الشعوب التي أرغمت على تبني النظرية الماركسية وخضعت لهيمنة روسيا الشيوعية، أرغمت على التخلي عن خصوصياتها الثقافية والدينية والاجتماعية، من أجل الانتماء، بمعايير المسطرة والفرجال، للنموذج الماركسي السوفياتي... وجرت محاولات هائلة، على مستوى الإعلام والتربية والثقافة والتعليم والسياسة والأمن، لتنفيذ المطلوب، أنفقت مئات الملايين من الروبلات لتحقيق هذا الهدف، وكانت النتيجة المزيد من تشبث تلك الشعوب بأديانها وتقاليدها الثقافية والاجتماعية، ورفض الانضواء الأصمّ إلى النموذج الماركسي السوفياتي...

فلقد سبق وأن حلم ماركس وإنغلز بنهاية للتاريخ، حين تتسلّم الطبقة العمّالية (البروليتاريا) مقاليد الحكم في العالم، حيث لا تغير بعدها ولا تبديل، وحيث ستتحول جميع الشعوب المنضوية تحت المظلة الماركسية إلى شعب واحد ذي مواصفات ثقافية واجتماعية واحدة، وكأنها نتاج مصنع كبير، ثم ما لبث هذا الحلم أن تأكد زيفه وعدم قدرته على الاصطراع مع قوانين الحركة التاريخية...

الأمر نفسه حدث بالنسبة لنظرية فوكوياما في نهاية التاريخ... وجاءت أمريكا إلى أفغانستان والعراق بحجة نشر مبادئها الليبيرالية وامتدادها فيما بعد إلى دول أخرى، ولكنها ما لبثت أن ارتطمت بالحقائق الواقعة على الأرض، وتبيّن أن إرغام الشعوب على اللحاق بالنموذج الأمريكي أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً...

إنهم في الحالتين أرادوا تبديل معادلات الخلق الإلهي التي أعلنتها الآية المذكورة... إن الله ﷻ جعل البشرية شعوباً وقبائل لتتعارف، أي ليتميز بعضها عن بعض، وأية مداخلة بشرية لتغيير هذه الواقعة المؤكدة والثقيلة، قاد أو سيقود العالم إلى الدمار بمستوياته كافة...

وأما إشكالية الذكر والأنثى... والتي سعت المؤتمرات العالمية التي تشرف عليها المؤسسات المشبوهة: الماسونية والصهيونية والعلمانية والإلحادية ودور القوادة العالمية، إلى تحقيق المساواة المطلقة بين الطرفين، وإطلاق العنان لإشباع النزوات الشاذة بما في ذلك الزواج المثلي، أي زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، وتدمير منظومة المفاهيم الحضارية للأسرة... وتسليم المرأة القوامة على الحياة... وإطلاق حريتها في العمل والكسب والاختلاط، والفحش والفجور، إلى مدياتها القصوى... وغير ذلك مما أقرّته توصيات مؤتمرات بكين والقاهرة وغيرها... الأمر الذي استفز المؤسسات الدينية الكبرى كالأزهر والفاتيكان، اللذين أعلنا إدانتهما لنتائج هذه المؤتمرات، وأكدا على حتمية التغاير بين الذكر والأنثى، من أجل حماية القيم الدينية والأخلاقية... وقبل ذلك من أجل

حماية مؤسسة الأسرة كواحدة من أكبر المؤسسات تحضراً وتماسكاً، وقدرة على تخريج أجيال من الناس الأسوياء الذين يقدرون على تحمّل مسؤولياتهم الاجتماعية والوظيفية والحضارية في نهاية الأمر، دون أن تجنح بهم جوانح الشذوذ والالتواء النفسي والسلوكي، ورفض فكرة الزواج وإنشاء الأسرة، وإنجاب الأطفال لغرض مواصلة الحياة...

إنها باختصار شديد: التقابل بين الله والشيطان... وصراع التطهّر والعهر... وتقاتل النزوع التحضري مع العنف والانفلات والهمجية... وتقابل الحرية المنضبطة، مع القسر والإرغام والعبودية...

ترى... لأيهما سيكون الانتصار؟!



٢٧

الخطاب الإلهي والمسؤولية الكبيرة

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]...

فعن طريق النبوات المتعاقبة على مدار مساحة واسعة من التاريخ، تمّ توصيل الخطاب الإلهي إلى الإنسان لكي يقوده إلى الصراط المستقيم... وكانت حلقته الأخيرة على يد الرسول المعلم (ﷺ)، واكتمال القرآن الذي تنزّل عليه: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتوصيل القول لا يقتصر على الخطاب الإلهي... إن هذا الخطاب هو عمل تأسيسي لا بدّ أن يقوم عليه البناء بجهد المنتمين إليه، من أجل ايصاله إلى كل بقاع الأرض، وإلّا فهو التقصير الذي سيحاسب عليه كل من تهاون في شأنه، وبذل أقصى ما في وسعه لمدّه إلى سمع العالم كله، وعقله وقلبه ووجدانه!!

إن القرآن الكريم يقولها بصراحة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وبالإحالة إلى الآية الأولى يتبيّن أن توصيل الخطاب الإلهي في كل بلد أو قطر يتمركز عند أم القرى، أي عند عاصمة ذلك البلد أو القطر... أو عند مدينته المركزية... وتبقى مسألة إيصاله إلى الأطراف من مهمة المنتمين إلى الدين... إنه يتولى المركز ويترك مسؤولية الانتشار على الأتباع...

ولما كان الدين الإسلامي هو خاتمة الأديان، والأمة التي انتمت إليه هي الأمة المسؤولة عن مصائر الموقف الديني في العالم، بسبب من كونها الأمة الوسط الشاهدة على البشرية في مسيرها ومصيرها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلنا أن نتصوّر كم أن الحجة قائمة علينا جميعاً لتغطية جغرافية العالم بمطالب الخطاب؟

وتزداد هذه الحجة إلزاماً في العصر الحديث... عصر العولمة الذي جعل العالم كلّه في التحامه وتقاربه أشبه بنادٍ أو قرية واحدة... وعصر المعلومات والإعلامية وأجهزتهما التقنية المدهشة (كالكمبيوتر والإنترنيت والهاتف النقال والفيس بوك والفضائيات... الخ)... ذلك أنها وضعت بين أيدينا إمكانات توصيل الخطاب إلى ملايين الناس عبر دقائق ولحظات... فإن لم نحسن توظيفها خسرنا الدنيا والآخرة...

وإنها لمسؤولية كبيرة كبيرة، وتحدٍّ خطير، ولا بدّ من أجل الاستجابة له من بذل جهود هائلة على مستوى الأفراد، والمؤسسات، والحكومات، والدول... جهود تعتمد ميزانيات ضخمة، وتخطيطاً محكماً، وخططاً خمسية وعشرية لتغطية الأزمان القادمة بما يحقق

المطلوب الغالي العزيز... والمطلوب هو هذا: مواصلة إيصال الخطاب إلى سمع العالم كلّه من أقصاه إلى أقصاه... ليس بلغتنا العربية وحدها وإنما بلغات الدنيا كلّها... اللغات الأم واللغات الفرعية على السواء...

ثمة خطوط أخرى للتوصيل يحدثنا عنها كتاب الله، حيث لم يترك ـ وحاشاه ـ أية فرصة للقول بأن هناك جماعات وشعوباً لم يصلها الخطاب... فكيف ستحاسب يوم القيامة، وكيف تتلقى العذاب، وهي لم تعرف شيئاً عن طبيعة الخطاب الديني ابتداء؟

ويجيء جواب القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

إذن فإن شهادة الإيمان بالله الواحد مركوزة في جِبِلّة الإنسان، حتى لو لم يصله الخطاب الديني، وعليه في حالة غيابها في طبقة بعيدة في نفسه أن ينقّب عنها، ويكشف عن حقيقتها ويحفزها على العمل، فهي كفيلة لأن تقوده إلى شهادة **(لا إله إلا الله)**، وتجعله يجتاز الحساب العسير بسلام!!

فجهد التوصيل لا يتحقق بالعمل من طرف واحد، وإنما من طرفيه: المرسل والمتلقي، وعلى الأخير أن يبذل أقصى ما في وسعه من جهد، من أجل الوصول إلى الحق، لكي ينقذ نفسه...

هذه واحدة، وهي مسألة ذات بعد داخلي...

أما الأخرى فذات بعد خارجي... تلك المنظومة المدهشة من

الآيات القرآنية التي تتحدث عن إبداعية الله ﷻ في الخلق على مستوى الكون والطبيعة والعالم والإنسان، والتي جاءت الكشوف العلمية الحديثة لكي تؤكد مصداقيتها... وتلك الدعوة القرآنية المؤكدة إلى (النظر) في خلق السماوات والأرض والإنسان، للتوصل يقيناً إلى الإيمان بالله الواحد القدير على هذا الإبداع المتوازن المنضبط، الذي لا يسمح للصدفة مطلقاً وبأية نسبة، بأن تمارس دورها فيه...

إن على الإنسان والجماعات والشعوب، حتى تلك التي لم يصلها الخطاب الديني أن تبذل جهدها في إعمال عقلها في معجزة الخلق، لكي ما تلبث أن تنتهي ليس فقط إلى الإيمان بالخالق جل وعلا... وإنما بتوحيده المطلق... وهذا ما نجد نموذجاً له في كتاب **(الله يتجلى في عصر العلم)** الذي يتحدث عن بضعة وثلاثين عالماً في مختلف العلوم الصرفة، أولئك الذين قادهم المختبر إلى الإيمان بالله الواحد ﷻ...

الطرق إلى الله ﷻ كثيرة، ويبقى على الإنسان أن يسعى للوصول... وهو يتعامل مع الخطاب الديني حيناً، ومع فطرته النقية حيناً آخر... ومع الكون والعالم والحياة حيناً ثالثاً... ويقيناً فإنه سيصل...



٢٨

المعادلة الخاسرة

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢ _ ٦٣]...

والله إنها لصفقة خاسرة بكل المقاييس، وكل الأدلة، وآلاف البراهين تؤكد أمام عقل الإنسان وفؤاده وقلبه وحسّه أن الله جل في علاه هو خالق كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء وكيل، وأنه بيده وحده مقاليد السماوات والأرض، أي قوانينها وسننها ومقدراتها ومصائرها وكينونتها وصيرورتها... بيده وحده لأنه هو جل جلاله الذي خلقها، ولأنه هو وحده المتكفل بتسييرها وحفظها وإدامتها... ألا يحتم هذا أن يؤمن الناس كافة بالله الواحد... الخالق... الوكيل... وهم يجدون أنفسهم، دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة، قبالة معجزة الخلق الكوني ذي المليارات من المجرات والسدم والمجموعات الشمسية والنجوم والكواكب والأقمار، التي لولا الإرادة الإلهية الواحدة، القديرة، المهيمنة، لتبعثرت، وتشتتت، وارتطم بعضها ببعض، وصارت هباء منذ آلاف السنين ومئاتها وملايينها...

وهم يجدون أنفسهم دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة، قبالة معجزة خلق الإنسان بتركيبه المدهش، ووظائف أعضائه المعقدة الدقيقة... بعينيه ولسانه وشفتيه... بأجهزته الهضمية والتنفسية والعصبية والعظمية والجنسية... والتي تعمل بشكل محكم، يقوم على سلسلة طويلة معقدة من الموافقات التي ينبني بعضها على بعض، ويؤول بعضها إلى بعض، بحيث تتأكد وبشكل فيزيائي مطلق فكرة الغائية من الخلق، وتنعدم بكل المعايير الرياضية مقولة الصدفة العمياء...

إننا لو فكرنا بمفردة واحدة من معجزة خلق الإنسان هذه، لقادنا ذلك دونما لفّ أو دوران، إلى أن وراء هذا الإحكام المطلق في الخلق، وجود خلّاق عظيم يملك قدرات مطلقة على الخلق والتسيير... وأنه ـ جل جلاله ـ على كل شيء وكيل...

يكفي أن ننظر إلى معجزة العين بتركيبها المعقد المدهش... بملايين حجيراتها الضوئية... وبقدراتها على التقاط الصور والأشياء المقلوبة وعكسها، لكي يراها الإنسان مستوية على سوقها... يكفي أن نفكر بطبقات العين القرنية والشبكية والسائل الزجاجي... و... و... مما لا يمكن بحال من الأحوال، وبأية نسبة من النسب، أن تكون الصدفة العمياء هي التي ركّبتها هذا التركيب الدقيق، المعقد، المدهش، الذي قاد رجلاً كدارون ـ زعيم ما يسمى بخرافة الإلحاد العلمي ـ إلى أن يقول في مذكراته الشخصية بالحرف: «كلما فكرت في تركيب العين البشرية هزّتني قشعريرة... أنا لا أعتقد بغياب الله عن هذا الإبداع»

يكفي أن ننظر إلى معجزة الشفتين واللسان، وتمكين الإنسان

بهما، من بين سائر المخلوقات الأخرى، من النطق، والتخاطب مع الآخرين... من الذي شقهما بهذه الجمالية، والقدرة العملية في الوقت نفسه، على الأداء، ومن الذي وضع اللسان في هذا الوضع الذي يمكّن الإنسان ليس من النطق فحسب، بل من التذوّق والاستمتاع.

ويوماً بعد يوم تجيء كشوف العلم الأكثر حداثةً، لكي تؤكد المعطيات القرآنية في الخلق الكوني والإنساني على السواء، فيما يجيء مصداقاً للآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

نظرية الـ Big Bang في الانفجار الكوني العظيم، في بدايات الخلق، تجيء مطابقة للآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

مبدأ الامتداد والتوسّع الكوني عبر منحنياته اللانهائية، والذي اكتشفه عالم الفيزياء المعروف (اينشتاين) يجيء مطابقاً للآية الكريمة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

الكشف عن الثقوب السوداء التي تملك قدرات هائلة على امتصاص الأجسام الكونية التي تقترب منها، يجيء مطابقاً للآية الكريمة: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وثمة جملة من الكشوفات الحديثة، التي توصل إليها علماء

الكوزمولوجي عبر السنوات الأخيرة من مثل وجود النجوم الطوارق، التي تطرق في أعماق الكون، فتثقب كل ما يمرّ بها من أجرام، والتي سبق وأن أقسم بها كتاب الله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣].

النجوم المكانس التي تمضي بهدوء في مسرح الكون الكبير فتكنس في طريقها كل ما تصادفه من أجسام والتي سبق وأن أقسم بها كتاب الله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٦].

العثور على التسمية الدقيقة لما كان يسمى خطأً بالفضاء الكوني، فإذا بها تحديداً (الدخان) Smoke فيما يحيلنا إلى الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فماذا عن عالم الأحياء؟ عن عوالم النمل والنحل، التي أكدت البحوث البايولوجية أنها مبرمجة بآلاف الخلايا الحساسة والذكية، التي تمكّنها من أداء مهماتها المدهشة الاقتصادية والهندسية والأمنية، فيما سبق وأن حدثنا عنه القرآن الكريم وهو يقّص علينا شيئاً من هذين العالمين؟

إنه الله جل جلاله... والكون العظيم شاهد على خلقه وقيمومته... والإنسان... والأحياء... تؤكد هذا الخلق والقيمومة...

الله جل جلاله، بالمواصفات المتفردة التي تحدثنا عن أسمائه الحسنى، وصفاته المعجزة، وأفعاله التي تتشكل بكلمة كن فيكون.

فأين حكام الأرض، وطواغيتها الصغار... الفانون... الراكضون وراء شهواتهم المنصرمة والمستهينون بشعوبهم... من هذا كله؟!

فيا أيها الملاحدة!... أيها الشكاكون!... أيها الفجرة!... أيها الأغبياء!.. انتبهوا، فإن أرقام المعادلة مكشوفة بتفاصيلها أمام عقولكم وأعينكم، فأقرؤوها جيداً قبل أن تخسروا الفرصة ولات حين مندم!!

أيها الملاحدة!... أيها الشكاكون!... أيها الفجرة!... أيها الأغبياء!... أزيحوا طبقة الران عن قلوبكم وعقولكم، اكسروا صدأ الأفئدة... وأنصتوا جيداً إلى نبضها العميق الذي يخفق باسم الله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

أيها الملاحدة!... أيها الشكاكون!... أيها الفجرة!... أيها الأغبياء!... إلى أين؟



٢٩

الزوايا المختلفة للصورة

كثيراً ما يقدم القرآن الكريم (الحالة) التي يتحدث عنها، من زوايا رؤية عديدة، فيقطع الطريق على المتشككين، أو المتشبثين بالرؤية الأحادية...

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٣]...

قد يقول قائل من أولئك المتشككين: وماذا في ذلك؟ فإن سكون الريح إذا كان يؤثر على السفن الشراعية ويوقف حركتها الأيام والأسابيع الطوال، فإنه لن يؤثر بحال على السفن البخارية، ومن بعدها الكهربائية، والذرّية...

وإذا بالقرآن الكريم يدير المنظور فيصفع هؤلاء بإجابته القاطعة: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤]، حيث يسقط حجتهم، ويبيّن لهم أن هنالك أكبر بكثير من سكون الريح، ووقف السفن الشراعية... هنالك ضرب السفن، وتفكيكها، وإغراقها بمن عليها وما فيها في دقائق ولحظات... أية كانت هذه السفن... بخارية أو كهربائية أو ذرية... وما أكثر السفن والغواصات التي

أغرقها الله في القرنين الأخيرين، حيث لم يتبق مكان للسفن الشراعية التي تدفعها الريح!! وليست حادثة الغواصة الذرية السوفياتية ببعيدة عن الأذهان...

وليست واقعة السفينة الأسطورة (تايتانيك) عام (١٩١٢م) ببعيدة عن الأذهان هي الأخرى... لقد بنيت لكي تكون أكبر سفينة شهدها التاريخ البشري على الإطلاق، وأقلعت من ساحل إيرلندة لكي تجتاز المحيط الأطلسي في طريقها إلى أمريكا... ويقف صاحبها الملياردير على سياجها وهي تبدأ رحلتها تلك، لا ليسمي باسم الله... ولكن ليقول بأن الضمانات التي وضعت فيها تتحدى أي شيء... لا بل إنه مضى في تبجّحه إلى القول بأنه يتحدى الإرادة الإلهية؛ إن كانت قديرة على إغراق سفينته العملاقة تلك!!

وفي داخل السفينة وهي تجتاز المحيط، في صالاتها، وباراتها، ومواخيرها، وغرفها... مضى المسافرون يرقصون ويشربون ويغنّون... و... و... مطمئنين أشد الاطمئنان إلى أن ناقلتهم تلك لن يصيبها أذى... وأنهم سيصلون آمنين إلى أهدافهم... وإذا بها على حين غفلة تضرب جبلاً جليدياً لا يظهر منه سوى الخمس، والأخماس الأخرى مخفية تحت الماء، فيشطرها شطرين، ويقودها بمعظم من فيها، وهم الآف مؤلفة، إلى القاع: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤].

وحقاً، إن الله ﷻ الغفور الودود الرحيم... عفا عن الكثير من الحالات المشابهة، فوصلت السفن إلى أهدافها بسلام دون أن يصيبها أذى، رغم ما جرى فيها من موبقات، ولكنه جلّت حكمته

يريد أن يقدم وسيلة إيضاح بين الحين والحين، يسدّ بها أفواه أولئك المتشككين، أو المتشبثين بالرؤية الأحادية، فيقود هذه السفينة أو الباخرة أو الغواصة أو تلك إلى مصيرها المفجع.

وهكذا الحال بالنسبة للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

فقد يقول: قائل إن جهاز السونار الحديث أخذ يكشف عن نوع الجنين وهو بعد في بطن أمه؛ ذكراً أم أنثى... فماذا تعني هذه الآية؟

والطرفان: الله والإنسان، يملكان القدرة على معرفة جنس الوليد... لكن القرآن الكريم لا يقف بعلم الله هنا عند حدود جنس المولود، ولكنه يمضي إلى خصائصه النفسية والسلوكية، وإلى مصيره في نهاية الأمر وهو بعد في بطن أمه، مما يستحيل على العلم البشري مهما ابتكر من الأجهزة، التوصل إليه.

هذه واحدة... ولكن الآية القرآنية تمضي إلى ما هو أبعد من ذلك فتقول: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤]... ها هنا إزاء (ما) النافية، حيث يقتصر العلم على الله وحده جل في علاه بما سيصير إليه الإنسان في اليوم التالي... وفي المكان الذي سيموت فيه!!

إننا بإزاء وجهين للصورة الواحدة... ففي أحد الوجهين علم يمكن أن يتحقق به الإنسان وهو كنه الجنين، ويشترك به مع علم

الله سبحانه وتعالى، وفي الوجه الآخر علم يختص به الله سبحانه وتعالى وهو التكوين النفسي والسلوكي والمصير الذي سيؤول إليه هذا الكائن الجديد.

فلو مضينا لمتابعة هذا الخطاب الثنائي في كتاب الله؛ فإننا سنعثر على المزيد من الشواهد، فيما يتطلب بحثاً خاصاً لا يحتمله مقال موجز كهذا...

إنها في بدء التحليل ونهايته جدلية التوافق بين الآني والمرحلي... وبين الأبدي المطلق والتاريخي المحدود... بين المنفكّ من أسر الزمن والمكان، وبين ما يرتبط بسبب النزول... وبين ما يتجاوز هذا كلّه، لكي يتعامل مع الحالة في أطوارها جميعاً بغضّ النظر عن موقعها في الزمن والمكان... أو في التاريخ والجغرافيا...

إن القرآن الكريم يكسر الحدود... يتجاوزها... إلى الأفق المفتوح والسماء الكبيرة... وتلك هي إحدى معجزات هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه!!



٣٠

لا مجاملة حتى للأنبياء!!

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠ ـ ١٦١]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

وغير هذه الآيات الكثير الكثير من الآيات التي تخاطب الأنبياء (عليهم السلام)، أو تتحدث عنهم، وهي تنطوي على صراحتها المطلقة في التزام الحق... حيث لا مجال للمجاملة على الإطلاق...

يا الله!... كم أن هذا الكتاب العزيز... يؤكد المرة تلو المرة، والحالة تلو الحالة، تنزّله من السماء فيقطع الألسنة المتشككة، والأيدي المرتجفة التي تقول أنه من صنع محمد!!

ها هنا في هذه الآيات إنذارٌ صريح، عارٍ عن أي قدرٍ من المجاملة أو التبرير في أن الله سبحانه وتعالى إذا شاء أن يخذل المؤمنين، بسبب مما تصنعه أيديهم، فلن يوقفه شيء على الإطلاق... والنبي الذي يغلُّ ـ وحاشاه ـ يأتي بما غلّ يوم القيامة لكي يحاسب عليه

أسوةً ببني آدم جميعاً... حيث لا خصوصية، ولا حماية، ولا مجاملة على الإطلاق...

ويوماً تساءل المسلمون الذين هزموا في معركة أحد: كيف؟ ونحن جند الله الذين يعملون تحت قيادة رسوله (عليه السلام) الموعود بالنصر من السماء... كيف؟!.

ويجيء الجواب الحاسم القاطع كالسكين: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]... فها هنا توضع النقاط على الحروف، دون مواربة أو مجاملة، وحاشا لكتاب الله... فبيّن لهم أنهم، وقد مارسوا خطأين كبيرين، كان لا بدّ من تلقّي العقاب...

أكثر من هذا... إن القرآن الكريم طالما نبّه رسول الله (ﷺ)، وحذّره في الوقت نفسه، في ألّا يهادن الخصوم مهما كانت نيتّه سليمة صادقة، ورغبته في كسب المزيد على صف الإيمان... حذّره أيضاً من ألّا يجامل ذوي النفوذ والمال على حساب الفقراء والمعدمين... وكلنا نذكر الآيات الأولى من سورة عبس التي تعاتب الرسول (ﷺ) على أحد مواقفه في هذا الخصوص: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١ ـ ١١].

بل إن القرآن يعلن عن مضاعفة العقوبة لرسول الله إذا حدّثته نفسه ـ وحاشاه ـ أن يميل أو يهادن لمصلحة الدعوة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ۝٧٣

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٢ ـ ٧٥].

ويمضي القرآن مصعّداً موقفه الحاسم من رسول الله (ﷺ) حتى ليبلغ به الأمر أن يصدر إعلانه الخطير، الذي ينطوي على التهديد والتنديد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

إنه الذبح إذن من الوتين إلى الوتين دون أن يجرؤ أحد، كائناً من كان، على تخليصه!!

يا الله!... إلى هذا الحدّ يا رب العالمين؟ ومع من؟ مع رسولك الذي قلت فيه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ﴾ [الطور: ٤٨] ورفعته إلى القمة بقولك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]... فأيّ تكشُّف إلهي هذا؟ وأيّ صدق مطلق في التعامل مع النبوّات؟ وهل يعقل ـ إذا أخذنا بخرافة خصوم هذا الدين من أن هذا الكتاب هو من صنع محمد ـ أن يخاطب محمد نفسه بهذا الخطاب ـ ويندّد بنفسه هذا التنديد المرعب الخطير؟

لا والله... إنها خرافة تمثل الدرك الأسفل من الغباء، الذي يعتّم الرؤية، فلا يكاد أصحابه يرون الأشياء على حقيقتها... ولا يقدرون على التفريق بين الأبيض والأسود... فلا حول ولا قوة إلا بالله!!



٣١

حرية الرأي وعدم الإكراه

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

فمنذ بدء كتاب الله وحتى نهاياته، يجد المرء نفسه قبال هذا التأكيد المتواصل على «حرية الرأي» وعدم «الإلزام».

وعبر مسيرة الأنبياء كافة كان النداء نفسه بالدعوة إلى القناعة الحرّة، بعيداً عن أي قدر من القسر والإكراه...

ومن ثم تتدفق كلمات الله ﷻ وآياته مؤكدةً على رسله وأنبيائه الكرام بعدم إرغام الآخرين، مهما كانوا على درجة من الضلال، على قبول الدين الجديد، والانتماء إليه...

فمهمة الرسل والأنبياء، والدعاة من بعدهم، أن يبيّنوا معالم الصراط، ويكشفوا إزاءه عن الطرق المعوجّة ويقدّموا للناس منظومة القيم التي بعثوا بها، ورفضهم للمعايير البشرية الضالة المنحرفة... ثم يتركوا ـ بعد ذلك ـ حرية الاختيار لمن يشاء: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولطالما أكد كتاب الله على رسوله الأمين محمد (عليه أفضل

الصلاة والسلام) أن يلتزم هذا الأمر، وألّا تدفعه الغيرة على دينه إلى إكراه قومه على الانتماء إليه... وناداه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٥]، ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

ولطالما بيّن له أنه ليس هو المسؤول عن هداية الناس، ولكنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن عليه أن يبذل جهده في حدوده القصوى ويترك الباقي على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ... وأن نتائج سعيه ليس ضرورياً أن يحصد ثمارها في حياته، على هذه الأرض، إنما عليه أن يسعى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الكفيل بترتيب النتائج على مقدّماتها ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦]، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

الرسول في المنطوق القرآني مبلّغ... مطلوب منه أن يوصّل بلاغه للناس كافة... أما ما يترتب على هذا البلاغ من حصاد فهو من أمر الله وحده... بمعنى فتح باب حرية الاعتقاد على مصراعيه أمام المدعوين، فليس ثمة أي قدر من القسر والإكراه والإرغام بعد إذ اتضح الحق والباطل... والصراط المستقيم والطرق المعوجة، وترك الأمر بعدها للمخاطبين في أن يسلكوا بحريتهم وإرادتهم

وخيارهم هذا الطريق أو ذاك: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يكفي أن يبيّن القرآن عذوبة الحياة، وطهرها، ووضاءتها، وسعادة الناس الذين يتحركون في جنباتها في ظلال الإيمان، بإزاء مرارة الحياة، وعفنها، وظلمتها، وتعاسة الناس الذين يذوقون بؤسها يوماً بيوم وساعة بساعة، في ظلال الكفر والمروق... ثم يترك هذا الخيار الحرّ في الذهاب عبر هذا الطريق، أو الارتداد إلى نقيضه.

ومن أجل ذلك كانت حركة الفتح، التي هي التعبير المنطقي السليم عن رؤية الإسلام الانتشارية في العالم لإزاحة الطواغيت وترك حرية الاعتقاد للأمم والجماعات والشعوب، انعكاساً عملياً عن هذا التوجه الأصيل في دين الله: حرية الاعتقاد.

ومن أجل ذلك، كان الفاتحون يخيّرون تلك الجماعات والشعوب قبل بدء القتال بإحدى ثلاث:

الانتماء إلى هذا الدين، أو البقاء على أديانها مقابل دفع الجزية التي هي إشعار عملي بقبول هذه الشعوب للانضواء تحت السلطة الإسلامية، وليس الدين الإسلامي الذي فتح أمام الخيار العقائدي الأبواب الدينية والمدنية على مصاريعها... أو القتال...

وإزاء هذا الخطاب الثلاثي المستمد من تعاليم كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)؛ وجدنا الكثير من الشعوب تختار بحريتها المطلقة الانتماء إلى هذا الدين، الذي جاء فاتحوه لكي يزيحوا من طريقها الطواغيت والأرباب الذين حجبوا عنها طويلاً حق الاختيار.

ونقرأ عبارة ذات دلالة في كتاب (الدعوة إلى الإسلام)

للمستشرق البريطاني المعروف السير توماس أرنولد يقول فيها: (إنه على مدى ثلاثة عشر قرناً من متابعته لانتشار الإسلام في العالم، لم يعثر على حالة واحدة... حالة واحدة فقط أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام).

إنه دين التحرير... وعقيدة الحرية... تلك التي رفع شعارها سفراء الإسلام وهم يتحاورون مع هرقل ويزدجرد ورستم (الله ابتعثنا لنخرج العباد من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده)!!

هذه الثلاثية التي تنبض دلالاتها بتحرير الإنسان من ضيق الدنيا وجور الأديان والنظم والمذاهب والحتميات... وعبادة كسرى وقيصر... ونقله إلى سماء الله الكبيرة، وعدل الإسلام، وعبادة الله وحده، حيث لن تقدر قوة في الأرض على أن تجعله ينحني لمطالبها الجائرة، ومقولاتها المعوجة...

إنه دين التحرير...



٣٢

العلم... أم الحكمة؟!

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فالعلم وحده لا يكفي... وقد تغريه إغراءات التحقّق بالقوة بعيداً عن ضوابطها الدينية والأخلاقية والإنسانية، فتقود الأمم والشعوب إلى المحارق الكبرى... وإلى إعدام الملايين من البشر... وإلى ضرب مدنهم بالقنابل الذرية...

وقد تغريه إغراءات المنفعة والتحقّق بالكسب والتكاثر، فيلجأ إلى أي أسلوب مبرّر أو غير مبّرر، لتحقيق المطلوب...

وقد تغريه إغراءات اللذة والإشباع، فيندفع في هذا الطريق جارّاً خلفه الجماعات والشعوب والأمم إلى أودية الضلال والعهر... والرذيلة...

وقد تغريه إغراءات الأنانيات العرقية والمذهبية، على حساب الأمم والشعوب المستضعفة، فتندفع بما تملكه من علم لتحقيق أهدافها الشوفينية، بعيداً عن أي اعتبار للقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية.

وقد تغريه إغراءات التنمية والكشف المتواصل، حتى لو قاده

ذلك إلى خلق جيل من الإنسان الآلي الذي يهدّد بافتراس ما تبقى من حرية... وسعادة... وإلى تحويل الحياة البشرية إلى حالة ميكانيكية لا لون لها ولا طعم ولا رائحة...

وقد تغريه إغراءات الإعجاب بالذات... والاعتقاد بأنه يملك القدرة على حل كل معضلات الحياة، فيتمرد على الدين، ويلغي الله ﷻ من حسابه، ويتألّه في الأرض...

العلم وحده لا يكفي، ما لم يتحرك ويبني مفرداته في ضوء دائرة أوسع، وفضاء معرفي أكثر شمولاً، يمنحه القدرة على الرؤية الصائبة، والالتزام بمنظومة القيم الخلقية والدينية والإنسانية، من أجل أن يأتي بثماره لصالح الإنسان، وليس ضد الإنسان...

ومن أجل ذلك يرفع القرآن الكريم نداءه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة هي تلك الدائرة الأوسع والفضاء المعرفي الأكثر شمولاً، والتي تنطوي بالضرورة على أبعادها الخلقية والدينية والإنسانية...

وإلّا فهي الخسارة الكبرى، أن نطلق العلم بدون (فرامل) الحكمة... والكسب الكبير للحركة العلمية إن تشكلت في دائرة الحكمة، التي تعرف ببوصلتها الحساسة كيف توجه العلماء من أجل إنسانية الإنسان...

ومن أجل ذلك يقول (إدوارد ويلسون) في كتابه (التكامل المعرفي) (ص ٢٩٤): (اننا نغرق في المعلومات ونموت جوعاً إلى الحكمة)!!

والسبب أن الغرب تخلّى عن الدين، وأعلن الحرب عليه، ففقد القدرة على الحصول على الحكمة، التي هي الربان الحقيقي للحركة العلمية، ولكل حركة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية... فجنحت به الجوائح وقادته إلى هذا الذي ظل يعانيه القرون الطوال بسبب من غياب «الحكمة». حيث تشكلت المذاهب والأفكار التي لم يتح لأي واحدة منها الدوام والاستمرار... إذ راح بعضها يضرب البعض الآخر ويخرجه من الساحة... ثم ما يلبث أن يبحث عن مذهب جديد لن يقدر له الدوام، لأنه سيتعرض هو الآخر للإخراج من الساحة وترك المجال لغيره من المذاهب والأفكار...

فالمثاليات الاشتراكية الطوباوية، والشيوعية، والوجودية، والقومية الشوفينية، والمسيحية بمذاهبها كافة، ثم الرأسمالية التي تعاني عبر العقد الأخير من جملة من الإخفاقات... لم يتح لأي واحد منها أن يجعل الغربيين المتمردين على الدين والألوهية، يفيئون إلى مذهب صالح، قدير على الاستمرار يقدّم لهم الخلاص.

ثم ها هي تيارات النقد الحديثة: البنيوية، وما بعد البنيوية، والتفكيكية، والسيمائية... و... و... يضرب بعضها بعضاً ويخرجه من الحساب... لأنها هي الأخرى انطلقت من خصومة عاتية مع الله سبحانه وتعالى... والدين.

وفي كل الأحوال، فإن الحكمة التي غابت عن العقل الغربي، هي السبب وراء هذا الذي يشهده عالم الغرب...

ويكفي أن نتابع بعض الأرقام إذ إن هناك غيرها الكثير... فواحد من كل عشرة من الأمريكيين يعانون من حالات الاكتئاب

المركّز الذي قد يقود إلى الانتحار... واليابان تخصص عام (٢٠١٠م) ثلاثين مليار دولار من ميزانيتها العامة، لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في ديارها... والسويد تشهد تزايداً ملحوظاً في حالات اللجوء إلى الانتحار: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

وتلك هي ثلاث من أكثر الدول في العالم تقدماً علمياً... ولكنه التقدم الذي تعوزه الحكمة... ومن أجل ذلك قال (ادوارد ويلسون) مقولته تلك: «إننا نغرق في المعلومات ونموت جوعاً إلى الحكمة»... ومن أجل ذلك أعلنها القرآن الكريم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]... وصدق الله العظيم...



٣٣

اقرأ!!

ما بين الأمر القرآني بكلمة (اقرأ)، وعبارة وزير الدفاع الإسرائيلي موشي دايان (إن العرب لا يقرؤون)، رحلة طويلة مترعة بالتناقضات... فلنقف عندها قليلاً... بدايةً ونهايةً...

كانت الكلمة القرآنية الأولى التي تنزّلت على رسول الله (ﷺ) في غار حراء هي (اقرأ)... ولم يكن رسول الله (ﷺ) بقارئ... فلعلّ دلالة الكلمة انطلقت إلى ما هو أبعد من القراءة في كتاب... وتلك هي القراءة في كتاب الكون الكبير التي تقود ـ بالضرورة ـ إلى خالقه جلّ وعلا...

والمهم هو أن الكلمة الأولى في نسيج كتاب الله كانت أمراً بفعل معرفي هو القراءة... وليست أمراً بفعل سلبي: (لا تقتل) (لا تسرق) (لا تزن)... إلى آخره...

هذه الكلمة التي خرّجت أجيالاً من الناس... كلّهم كانوا يقرؤون... كلهم كانوا يمزجون الليل بالنهار، وهم يقرؤون... كلّهم كلّت أعينهم من قراءاتهم المتواصلة... وقد أنجب ذلك أجيالاً من

العلماء الكبار في كل مجالات العلوم الإسلامية والإنسانية والصرفة وحتى التطبيقية...

ومن خلال خبرتي في التدريس الجامعي، فيما يقرب من نصف القرن، كنت أتعامل حتى سبعينيات القرن الماضي مع طلبة يقرؤون... يعشقون الكتاب... ويمضون في التهامه الساعات الطوال، ولذا كانت محاضراتي لهم ساحة للحوار الخصب بين الأستاذ والطالب... ما كنت أذكر مفكراً من المفكرين أو كاتباً من الكتّاب أو أديباً من الأدباء؛ إلا ووجدتني أمام عشرات الأيدي التي تطلب الجواب...

ثم ما لبث الطلبة الجامعيون منذ ثمانينيات القرن الماضي وحتى اللحظة الراهنة، أن انطفؤوا... ولم يعودوا يقرؤون... تمرّ السنة والسنتان وهم لا يطالعون كتاباً واحداً... ولذا أصبحت المحاضرات معهم تنسج خيوطها من جانب واحد هو الأستاذ... وهم كالحجارة الساكنة، لا يحاورون ولا يتجاوبون ولا يناقشون... عندما أذكر اسماً كديستويفسكي أو ديكنز أو نجيب محفوظ أو سهيل إدريس أو همنغواي أو الغزالي أو سيد قطب أو القرضاوي تدور أعينهم في محاجرهم ولا يعرفون عنهم شيئاً... أيما شيء على الإطلاق...

وطالما كنت أقول لهم: إنكم ستضعون شهادة البكالوريوس، وحتى الماجستير والدكتوراه في جيوبكم... ولكنكم ستظلون أميين، لا تملكون أية قدرة على تقيم محاضرات متألقة، أو تأليف كتاب ذي غناء، أو إنجاز بحث يستحق القراءة... ذلك أن عشرين سنة من الدراسة الجامعية المعتمدة على (المقرّر)، وعشرين سنة أخرى من الجلوس أمام الكمبيوتر والإنترنيت والفضائيات، لا تخرّج مفكراً

ولا كاتباً ولا باحثاً ولا أديباً ولا مبدعاً... ولا محاوراً متألقاً، أو محاضراً متميزاً... فالذي يخرّج هؤلاء هو الكتاب... ما نسميه بالمطالعة الخارجية... وبما أنكم لم تعودوا تقرؤون فلن تكونوا شيئاً... وستصبحون مسخرة أمام تلاميذكم ومستمعيكم...

في نهاية عام (٢٠١١م)، حيث كنت ألقي محاضراتي في الفقه الحضاري على مجموعة من طلبة الدكتوراه يبلغ عددهم اثني عشر طالباً... قلت لهم: أرجو أن تجيبوني بصراحة... فها هو العام يوشك على الانقضاء، فكم من الكتب قرأتموها عبره؟ تسعة منهم التزموا الصمت... لم يقرأ أحدهم كتاباً واحداً... وثلاثةٌ منهم قرؤوا كتاباً أو كتابين!!

أجبتهم باستهجان: أما أنا فقد أنجزت قراءة ثلاثين كتاباً...

وإنني أعرف أساتذة جامعيين يحملون درجة الأستاذية، تمرّ السنة والسنتان دون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة كتاب واحد... فإذا كان الأساتذة لا يقرؤون... فكيف يكون حال طلبتهم؟!

في الإحصائية التي نشرت عام (٢٠١٢م) أرقام تثير الحزن في نفس الإنسان... إن معدل قراءة المواطن الغربي في السنة الواحدة هو مائتي ساعة... أما المواطن العربي فيقرأ أربع دقائق فقط!! فأية مهزلة هذه؟ وأية مفارقة بين أمة أريد لها في كتاب الله أن (**تقرأ**)... فإذا هي لم تعد تكترث مطلقاً لشيء اسمه المطالعة الخارجية؟

أفليس من حق (موشي دايان) أن يقول قولته تلك، تعقيباً على اعتراض أحد قادته في نشره معلومات عن موعد قيام إسرائيل بضرب مصر في حزيران عام (١٩٦٧م).

فلو أنهم كانوا يقرؤون فعلاً لاتقوا الضربة، ولكونهم لا يقرؤون حدث ذلك الذي حدث، وتسلّم الصهاينة سيناء وغزة والضفة والجولان في ستة أيام!!

بل إنني لأذكر كيف أن القائد العراقي المتألق اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) حدس بثقافته العسكرية المتقدمة، اليوم الذي ستضرب فيه إسرائيل، وهو الخامس من حزيران، ونشر في ذلك مقالاً في إحدى الصحف العراقية... ولكن وبما أن العرب لا يقرؤون لم ينتبه أحد إلى تحذيره، وحدث ذلك الذي حدث...

كان شبابنا في أربعينيات القرن الماضي وحتى سبعينياته يقضون الساعات الطوال في المكتبات العامة يقرؤون بنهم... منذ التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً... ومنذ الثالثة عصراً حتى الثامنة مساءً. وهم حتى عندما كانوا يتجهون إلى المقاهي والكازينوات كانوا يحملون معهم الكتب لكي يقرؤوها هناك ويتحاوروا فيها...

أما اليوم... فبنظرة على حشود الشباب في المقاهي والكازينوات لا تكاد ترى واحداً يقرأ... فالكل منكبون كالسوائم والأنعام على لعب الورق... فأي مصير هذا الذي ينتظرهم؟!



٣٤

حول القدر والحرية

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٤]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦ ـ ١٤٧]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

فهل ثمة أكثر من هذا تأكيداً على منطقية القدر في المنظور الإسلامي، ودقّته وإحكامه؟ ها هنا حيث ترتبط النتائج بأسبابها، لا تشذ عنها ولا تعاكسها... وإنما تتساوق معها وتنبني عليها من أجل أن تضع كل شيء في مكانه المناسب تماماً...

ها هنا نجد ـ مثلاً ـ أن الله ﷻ لا يهدي من لا يؤمن بآياته، طواعية وباختياره المطلق... سواء كانت آيات الله في الكون والعالم والطبيعة والإنسان... أو في كتابه المعجز... وما أكثرها... ولكن العمى هو العمى، وعندما تعمى البصيرة فلن يكون بمقدور ألف من حواس البصر أن تري صاحبها الحق... فهو والهدى على طرفي نقيض.

ها هنا لا يزيغ الله ﷻ إلا القلوب التي اختارت أن تزيغ عن أمر الله، وآياته، ودلائل وجوده، ووحدانيته... والذين لا يعرفون كيف يستعملون عقولهم للوصول إلى الحق، يحيقهم الله بالرجس ويصدّهم عن الإيمان، لأنهم اختاروا بإرادتهم ألا يستجيبوا لنداء الإيمان...

وها هنا يكون نقض المواثيق، وقتل الأنبياء بغير حق، وتغليف القلوب بطبقة من الران والصدأ سبباً لكي يطبع الله على قلوب أصحابها بالكفر... وها هنا يصير الظلم الذي يمارسه الإنسان

بحريته واختياره سبباً لطرده من رحمة الله... ويصير التكبر في الأرض بغير الحق، والعزوف عن سلوك سبيل الرشد واستبداله بسبيل الغي، والتكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة، والغفلة عنها؛ سبباً في الجزاء الذي يستحقونه وفق قاعدة (الجزاء من جنس العمل).

والمصائب التي تحيق بالناس لا تأتي جزافاً، وحاشا لله، إنما تأتي بما كسبت أيديهم، وبالأسباب التي سهروا على صنعها، والتي كان لا بدّ أن تؤول إلى هذه النهايات المفجعة.

وبالمقابل فإن الله يهدي من يجاهد فيه... الجهاد على إطلاقه... الأكبر والأصغر، وبذل ما في الوسع للاستقامة على الطريق... والذين قدّر لهم أن يصيروا أئمة يهدون بأمر الله، ما كان لهم أن يتربعوا القمة ويصيروا كذلك؛ لولا أنهم صبروا على البأساء والضرّاء، وحوّلوا حياتهم إلى جهد مكافح في مجابهته لكل صنوف الأذى والعدوان... هذا إلى أن الله ﷻ لا يهدي إلا أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وجعلوا حياتهم كفاحاً موصولاً من الإيمان والعمل الصالح...

وهكذا تتدفق الآيات لكي ترسم التصوّر العادل، الصحيح، لمسألة القدر والحرية، تلك التي طاشت فيها مسالك أولئك الذين اتبعوا الظنون والأهواء، أو انتموا إلى المذاهب المعوجّة والأديان المحرفة، فلم يعد بمقدورهم أن يتبيّنوا مسالك الطريق، وطاشت بموازينهم الأحكام بخصوص هذه المسألة التي بين أيدينا، والتي لا يتسع المجال للخوض في تفاصيلها، في مقال موجز كهذا.

وفي آيات ثلاث من سورة القصص يحسم القرآن الكريم

ظاهرة القدر والحرية، ويضع النقاط على الحروف، التي تزيد ما ورد في الآيات السابقة تأكيداً ووضوحاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٨ ـ ٦٩].

ومحور هذه الآيات هو علم الله سبحانه وتعالى الذي يسبق الحكم على المصائر، وهو علم مطلق بالباطل والظاهر على السواء...

وبناء على هذا العلم الذي لا يتقاطع مع إرادة الإنسان واختياره، يجيء الجزاء العادل هدايةً أو ضلالاً...

وفي كل الأحوال، فإن فعل الإنسان هو الذي ينبني عليه الجزاء... فـ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].



٣٥

غائية الخلق ومبدأ الحق

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩]، ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٨].

فليس ثمة لعب أو لهو وحاشا لله... إنما هو الحق الذي خلقت به السماوات والأرض، وأقيم عليه بنيانهما المعجز... وإنما هو الأجل المسمى الذي سيؤول إليه كل شيء في هذه المنظومة الهائلة من الخلق... وإنما هو جدل الحق والباطل، وانتصار الحق وضياع الباطل... وإنما هو الويل والثبور والهلاك لكل الذي غطي على أعينهم، وطمس على قلوبهم، فلم يعودوا يرون (الغاية) النهائية لمبدأ الخلق، أو يعاينوا مصائر الأشياء والأقوام والجماعات...

إنه القصد المحكم من خلق الكون والإنسان... والفرصة المحددة بأجَلها للحياة الدنيا... وبعدها سيكون ما يكون في علم

الله، من انقلاب كوني عظيم تتغير به الخلائق والأشياء... ويقف الإنسان عارياً أمام حساب الله العادل، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

إنه الجدّ الذي تقوم عليه السماوات والأرض، وتمنح الحياة والموت للإنسان... لأن الذي سيجيء بعد ذلك هو الذي سيحدّد المصائر والمقدرات، وهو الذي يسوق الإنسان إلى جنة أو نار، استناداً إلى طبيعة تعامله مع هذا الجدّ، وخضوعه لسننه ونواميسه، أو تمرّده عليهما...

إنه أشبه بالمعادلات الرياضية أو الفيزيائية الصارمة التي لا تقبل مماحكةً ولا جدلاً... والتي تخرج من مقولاتها أية لمسة من لهو أو لعب... والتي تضع الموازين القسط لكل صغيرة أو كبيرة في بنية الكون والحياة.

وإنها الموازين الكبرى التي خلقت بها ولها السماوات والأرض والحياة، والتي سيّرت بها السماوات والأرض والحياة، والتي ستؤول إليها السماوات والأرض والحياة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

فما من صغيرة أو كبيرة في سلوك الإنسان في هذا العالم إلّا وهي مُحالة على هذا الميزان الكبير الذي خلقت به وله السماوات والأرض...

إن مفردات هذه الآيات، وصورها وظلالها، تعكس هذا الجدّ الكامل في الخلق، والذي إذا أحلنا عليه الرؤى والمذاهب والمعطيات الوضعية الفاجرة الكافرة التي لا تعترف بالله، وترفض الإيمان

بالأديان المنزلة من عنده ﷻ، يتبيّن مدى سخفها، وعبثها، وتناقضها، وتهافتها، ولعبها، ولهوها...

ولكن على حساب من هذا السخف والعبث والتناقض والتهافت واللهو واللعب؟!

أليس على حساب الإنسان نفسه؟

فها هي الأمم والجماعات والشعوب التي تبعت هؤلاء الأرباب من صنّاع الإلحاد، واستعبدت أنفسها وعقولها لأهوائهم وظنونهم وعبثهم... تخسر الكثير من الجهد والزمن، وهي تلهث كالكلاب الضالة وراء هؤلاء الآلهة المزعومين، ثم ما تلبث أن تنفض يديها منهم بعد إذ يتبين لها كذبهم ودجلهم وأنانيتهم وتألّههم في الأرض...

وتجيء بعدها دورة جديدة من الضياع... من أجيال المستعبَدين الذين أسروا أنفسهم في عبادة الزعماء والأرباب، والذين ما يلبثون هم الآخرون أن ينكشف لهم الزيف والخداع، فينفضوا أيديهم ويتمردوا على الآلهة والأرباب...

تلك هي ـ بإيجاز شديد ـ مأساة البشرية الضالة التي لم تفتح بصائرها جيداً على (الجدّ) الذي خلقت به السماوات والأرض، والتي طمس على أعينها فظنت الأمر لعباً ولهواً، فما لبثت أن تعرضت للتعاسة والضياع.

ولن تجد نفسها، وأمنها، وسعادتها المفقودة إلّا بأن تتمرد على هذه الرؤية العوراء، التي لا تكاد ترى شيئاً من قصدية الخلق، وغائيته، وموازينه الثقيلة، فتنصت بسمعها وبصرها وعقلها وقلبها

وفؤادها للإنذار الإلهي، الذي يعلن بأكثر الكلمات قوةً ووضوحاً أن حياة الإنسان في هذه الأرض مرسومة بالدقة والجدّ، محكومة بالموازين القسط، ومسيّرة صوب يوم الحساب...



٣٦

الأقلية... والأكثرية

ودائماً يؤكد كتاب الله أن الأكثرية تكره الحق... وأن هذا من أقدار الله سبحانه وتعالى في هذا العالم: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وفي عشرات الآيات والمواضع القرآنية يرد التأكيد نفسه... ما الذي يدلّ عليه هذا؟

أغلب الظن أنه سنة من سنن الله في الخلق... قانون من قوانين الحركة التاريخية، التي يعنى بها فلاسفة التاريخ، والتي تسعى

إلى تفسير القوى التي تشكل الوقائع التاريخية أو تقودها إلى التفكك والانحلال.

ها هنا يتم التأشير على هذا القانون الذي يمضي لكي يتعامل مع التاريخ البشري كلّه، منذ لحظاته الأولى إلى أن يشاء الله... أن الأكثرية هي دائماً على ضلال... تكره الحق... تمقت الإيمان... تكفر... تسرف... تفسق وتضلّ بأهوائها، وتصدّ عن سبيل الله، وتجحد بلقاء الآخرة... وتقف بمواجهة دعوات الحق...

والأكثرية في نهاية الأمر قد لا تعني شيئاً، أو تحتل ثقلاً في رسم المصائر والمقدرات... فإن هنالك في المقابل القلّة المبدعة... أو النخبة المؤمنة... التي تقود ولا تقاد... وتبدع ولا تقلّد... وتشق بذلك الطرق المستقيمة وسط عالم مترع بالفوضى والفساد والطرق المعوجّة والضلال...

القلّة هي التي تصنع التاريخ، أما الأكثرية فيجيء دورها تالياً لأنها تُقاد، وتقلّد، وقد لا تفعل شيئاً على الإطلاق سوى إثارة الفوضى والاضطراب في مسيرة الحركة التاريخية، ولطالما وضعت العصي ـ كما يقول المثل ـ في دولابها الدوّار لكي تعرقل مهمته...

ونحن دائماً نتباكى على هذا الضلال الذي يحيق بأكثرية الناس... وقد يصيبنا الإحباط لأننا لم نكسب في حركاتنا سوى قلة من الناس... وتبقى الأكثرية وكأنها قد وضعت على آذانها شمعاً لا تستمع لكلمة الحق، ولا تلين قلوبها وعقولها لمنطقه القوي الذي يليّن الحديد...

وننسى أن الأنبياء والرسل (عليهم السلام)... عانوا في مراحل كثيرة

من دعواتهم من هذه الظاهرة، ولم ينتم إليهم إلا قلّة من الناس... بينما وقفت الأكثريات الساحقة تعاندهم، وتقاتلهم، وتضع في طريقهم الأشواك... لكنهم بإدراكهم لحقيقة الصراع... وحتمياته... ونتائجه... بالنور الإلهي الذي منحهم الرؤية الثاقبة للمصائر والمقدرات، أدركوا أن هذه القلة، أو النخبة التي انتمت إليهم أوّل الأمر، هي التي ستواصل الطريق، وتصنع التاريخ... لم ييأسوا لحظةً واحدةً، وهم يحفرون الطريق مع قلة من أصحابهم؛ لأنهم كانوا موقنين بنتائج هذا الجهد وحصيلة تلك المعادلة الصعبة...

وأتذكر ها هنا دائماً مقولة فيلسوف التاريخ البريطاني المعروف (أرنولد توينبي)، في تفسيره للتاريخ عبر كتابه المعروف (دراسة للتاريخ)، كيف أنه كان يؤكد على مفهوم الأتباع في التاريخ وأن هناك نمطين منه... نمط أتباع القلّة أو النخبة المبدعة زمن التألّق الحضاري، ونمط أتباع الأكثريات الضالة زمن الانكسار الحضاري... وأقارن هذا بمعطيات القرآن المدهشة في التعامل مع الموضوع والتي سبقته بأكثر من ألف وأربعمائة سنة...

إن كتاب الله يضعنا في التاريخ... في أكثر من نصف مساحته، لكي نتلقى التعاليم من نخبه المبدعة والمستنيرة بهدي الله، وتعاليم الرسل والأنبياء والمصلحين الكبار... ولكنه يحرّرنا من التاريخ في آيتين، بالمفردات نفسها من سورة البقرة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

فهو إذن يريد أن يضعنا في قلب العصر... في مواجهة

مشكلاته وتحدّياته، وأن ننظر دائماً إلى المستقبل ونحسب حسابه، بدلاً من أن يشدّنا التاريخ إلى الوراء...

بل إن كتاب الله يمضي خطوةً أخرى، فيعيب على الجاهليين تشبثهم بتقاليد الآباء والأجداد المترعة بالكفر والفسوق والضلال: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]... ويسألهم كل رسول: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] فما يكون جوابهم إلا أن يقولوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

مرّة أخرى، فإن هذه التعاليم تدفعنا إلى أن نلغي من قواميسنا مفردتي اليأس والإحباط، وأن نتشبث بالعمل الموصول حتى آخر لحظة من حياة كل واحد منا، حتى لو لم تنتم إلينا الأكثريات... فإن القلة أو النخبة المبدعة هي التي تملك مفاتيح التغيير التاريخي... وقد يجيء اليوم، بالصبر والمعاناة والكدح المتواصل، الذي تنفتح فيه الأبواب، وإذا بالأكثريات تفيء إلى الحق، وتنضم تحت قيادة الأقليات المبدعة... مؤممةً كل طاقاتها من أجل تحقيق الهدف المنشود...



٣٧

التزيين... تلك المصيدة الكبرى

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٤].

ويقف الإنسان وهو يتلو هذه الآيات عند عبارة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] ويتذكر كيف كان هذا التزيين المصيدة الكبرى لإيقاع الآخرين في حبائل الشيطان... لأنه يأخذ ألف صيغة وصيغة، وكل صيغة تنطوي، في قدرتها على استدراج المخدوعين، على إمكانات هائلة في الجذب، والإعجاب، والدهشة، والانغمار من ثم فيما وراء الديكورات التزيينية التي يرسمها الشيطان... من فسق وعهر وفجور وضلال، يتجاوز في هبوطه درجات الإنسان العالية، حتى ليصل به الأمر إلى ما دون مستوى الحيوانات والعجماوات!!

هذا الذي يحدث في ديار الغرب... التزيين... وهذا الذي نركض نحن في عالمنا الثالث وراءه، محاولين اللحاق به، حتى

تتقطع أنفاسنا، وتحترق أموالنا، وتخرّب بيوتنا... في محاولة مستميتة لتقليدهم في كل ما يفعلون، حتى ولو كان هذا التقليد يقودنا إلى جهنم، ويوزّعنا على باب من أبوابها السبعة لكي ندخلها فلا نغادرها أبداً...

وإنها لجهنم الدنيا قبل جهنم الآخرة... لأن هذا التزيين ما هو إلا بهرج من الألوان والأصباغ التي تستدرج الآخرين إلى ما وراء الظاهر، فينغمرون في عالم اللذة الموقوتة التي تنتهي إلى الخراب.

هذا هو الفارق في بعده الحضاري بيننا كأمة إسلامية وبين الغربيين... هم يتزينون ويتعرَّوْن حتى في تماثيلهم التي تملأ الساحات... وفي وسائل إعلامهم التي أغرقت الدنيا... فما من صحيفة أو مجلة، أو كتاب، أو مسلسل، أو سهرة تلفازية، أو فيلم سينمائي، أو مسرحية من المسرحيات إلا وتزرع فيها عومل الفتنة والعري من أجل كسب المزيد من الأتباع والأموال، والاستجابة لنداء الشيطان الذي أقسم على الله ﷻ أن يزين لهم في الأرض لكي يسوقهم إلى النار...

ونحن نركض وراءهم في صحفنا ومجلاتنا وتلفزيوناتنا وأغانينا وفنوننا وفضائياتنا حتى تتقطع منا الأنفاس، دون أن ندري أننا بهذا نتجاوز تقاليدنا الحضارية التي تقوم على التغطّي وستر العورات، والتزيّن الحلال... وما عدا ذلك فهو الباطل والحرام، وهو التقليد الأعمى الذي سبق وأن حذّر منه رسول الله (ﷺ) في أحاديثه

الشريفة حيث أنه سيأتي زمان لو دخل الآخر في جحر ضبّ لدخلنا معه لكي نختنق هناك...

إنه بعبارة أخرى نوع من الانتحار الحضاري... أن نتجاوز ثوابتنا وأن نهرع إلى غيرنا، نستمد منه العادات الفاجرة، والتقاليد العاهرة، والتكشف المفضوح...

ولن يتسع المجال هنا للحديث عما يفعله هذا كله بشبابنا من المزيد من الإحساس بالكبت المدّمر للسوية النفسية، فضلاً عما يدفع إليه من الفجور والانحلال وغياب القدرة على الفاعلية، التي هي أساس الإنجاز الحضاري في كل زمن ومكان...

ولكني أتذكر بعض الفضائيات العاهرة في ديارنا، تلك التي تبتكر سنة بعد أخرى، صيغاً جديدةً ومثيرة للفجور...

إن مسابقات برنامج (آراب أيدل) لاختبار أجمل الأصوات الغنائية في العالم العربي، هي نموذج من عشرات البرامج على هذا الانحلال الذي تمارسه وتدعو إليه بعض فضائياتنا العربية للأسف، حيث يختلط الرجال بالنساء الشهور الطوال... وحيث يخلو العاملون بالبرنامج بهذه المغنية أو تلك الساعات الطوال... وحيث يؤتى بمحكّمين لا هم بالرجال ولا النساء... مجموعة من المخنثّين الذين يتمايلون وينحني بعضهم على بعض، ويهمس بعضهم في أذن بعضهم الآخر بكلمة قد تكون سهماً من نار!!

ويتباهى مخرجو البرنامج بأن ملايين الناس تشاهده وتتابعه بشغف أسبوعاً بأسبوع، ولا يدري أولئك وهؤلاء أنه التزيين الذي أقسم الشيطان على رب العزة أن ينشره في الأرض من أجل أن

(يغويهم أجمعين)... ولن يفلت من إغوائه إلا عباد الله المخلصين الذين لن يكون له عليهم سلطان...

فيا أيها المسلمون في العالم... مع من تريدون أن تكونوا؟ مع أولئك الضالين الذين وقعوا في الشرك، أم مع هؤلاء المخلصين الذين كسبوا في صفقتهم الرابحة خير الدنيا والآخرة؟!



٣٨

آيتان تحسمان سقوط الشيوعية

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥ ـ ٧٦].

في هاتين الآيتين الكريمتين يحسم القرآن الكريم مسألة سقوط الشيوعية وخروجها من التاريخ، وبحث بقاياها أتباعها عن صيغ أخرى لترقيعها قبل أن تغيب عن ذاكرة الأجيال إلى الأبد.

فلقد سبق لمؤسسي الفكر الشيوعي (ماركس وانغلز) أن أعلنا عن المرتكزات والخطوط العريضة لمذهبهم الماركسي في المانيفيست الشيوعي، الذي أصدراه في منتصف القرن التاسع عشر... وكان من بين مرتكزاته تلك مقولة «لكل حسب حاجته» من أجل التسوية بين الجميع، ودفع غائلة الفقر والجوع عنهم في مجتمع اشتراكي يسوده العدل والمساواة بين الناس.

لكل حسب حاجته... حتى أولئك القاعدون الكسالى الذين

لا ينفقون ولو جزءاً ضئيلاً من جهدهم وكدحهم ووقتهم في الإنتاج، الذي يمكّن الدولة من تغطية مطالبها المالية والاقتصادية والإنمائية والخدمية... الخ...

وعندما يجد العاملون والمبدعون أنهم يتساوون في الأخذ مع أولئك الكسالى والقاعدين؛ فإنهم بدورهم يكفّون أيديهم عن العمل والإبداع... أو في الأقل يخففون جهدهم إلى حدوده الدنيا... وتكون النتيجة في الحالتين انهياراً في الدخل القومي للدولة، وشرخاً في أمنها الغذائي، وعجزها من ثم عن تلبية مطالب الناس وسقوطها في نهاية الأمر.

فمن خلال غياب الأمن الغذائي في الاتحاد السوفياتي المنحلّ، دخل الشر والفساد... ومن ورائه أمريكا، التي ظلّت تلاحق الاتحاد السوفياتي والشيوعية عشرات السنين، من أجل إيصالها إلى الطريق المسدود وإخراجها من التاريخ.

لم تعد شعوب الاتحاد السوفياتي، بسبب غياب الوازع الذاتي، تنتج عشر معشار ما تحتاجه هذه الشعوب في غذائها... من القمح والشعير والرز والبطاطا... و... و... بحيث أن إحدى الإحصائيات أشارت إلى أن ما تنتجه مساحة من الأرض من البطاطا في الاتحاد السوفياتي يساوي ١ من ٢٠٠ مما تنتجه المساحة نفسها في الولايات المتحدة، حيث الوازع الذاتي يمارس دوره المعروف في تحسين الإنتاج ورعايته وتكثيره من أجل أن يدرّ المزيد من الأرباح... وحتى صرنا نسمع كيف أن روسيا كانت تحرم الشعوب والدول التي خضعت

لسياساتها من أكل الحنطة، وتطعمها الشوفان الرخيص، كي تصدّر الحنطة وتكسب بها شيئاً من العملات الصعبة.

وغير هذين الشاهدين عشرات من الشواهد الأخرى، التي دفعت جلّ مواطني الاتحاد السوفياتي والدول التي تدور في فلكه إلى اللجوء إلى الرشوة، جهاراً عياناً، من أجل سدّ حاجتهم إلى الإشباع.

والذين زاروا رومانيا أو بلغاريا أو بولندة أو المجر، حدثونا كيف أنهم بعلبة سكائر كانوا يقدرون على حجز أماكن لهم في أرقى الفنادق، والذين لا يقدمون شيئاً لهؤلاء لن يحصلوا إلا على أسوإ الأماكن وأردئها...

ذلك أن مساواة الجميع، وفق مبدأ (كل حسب حاجته) لن يتوقف عند حد ابتلاع إمكانات الدولة المادية، بل يمضي إلى ما هو أشنع من ذلك: تباطؤ القدرة على الإنتاج والرغبة في التحسين، وتوقفها أحياناً ما دام أصحابها يضمنون الحصول على حاجتهم أسوةً بالعاملين المجدّين.

وفي مثلين من كتاب الله كان القرآن قد حسم الأمر: العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، كيف يتساوى مع صاحب المال الذي ينفق منه سرّاً وجهراً؟ والأبكم الذي لا يقدر على شيء، وهو كلّ على مولاه، أينما يوجهه لا يأتِ بخير، كيف يتساوى مع من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟

والذي حدث في الاتحاد السوفياتي أن المانيفيست الشيوعي أراد التسوية المطلقة بين الطرفين، فسقطت دولته العملاقة التي وعدت بتنفيذ برنامجه، ولكنها عجزت في نهاية الأمر عن مواصلة

الطريق، فخرجت من التاريخ... ذلك أنها بتعبير (جون سترايتشي) اصطرعت مع قوانين التاريخ!!



٣٩

حول العلمانيين

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى: ٢١].

ودائماً نقول إن من حق العلمانيين أن يدعوا إلى فصل الدين عن الدولة، وأن يؤكدوا مذهبهم هذا صباح مساء في الصحف والإذاعات والفضائيات والندوات والمؤتمرات... وأن يكدّوا حتى تجفّ ألسنتهم وتنشف حلوقهم في الهجوم على مفاهيم الدولة الإسلامية، ومحاولة تفنيدها وإثبات بطلانها... وليؤلفوا الكتب والبحوث في ذلك، فليس ثمة من يمنعهم، لأن هذه هي قناعتهم الحرّة في تصوّرهم ـ الخاطئ ـ هذا!!

وإذا كان كتاب الله قد سمح بالوجود حتى للكفر والكافرين بقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩] أفلا يسمح لفئة موازية من الناس تؤمن بالله وباليوم الآخر، ولكنها تدين بالعلمانية، وتدعو إلى فصل الدين عن الدولة؟!

لكن ليس من حقهم مطلقاً أن يسعوا إلى تخلّي الإسلاميين عن عقيدتهم الثابتة والمؤكدة في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) بخصوص

الدولة الإسلامية... أن يلاحقوهم ويسلطوا عليهم أشد النظم والممارسات البوليسية دموية لكفّهم عن قناعتهم تلك... فكما أعطى الإسلاميون خصومهم الحق في تبني العلمانية، والدعوة لها، فإن على هؤلاء أن يعطوا الإسلاميين الحق في تبني الارتباط المحتوم بين الدين والدولة، والدعوة إليه، والسعي لتنفيذه في واقع الحياة...

ولكن أليس من حق الإنسان أن يتساءل: كيف يبرّر العلمانيون لأنفسهم هذا الالتواء العقلي المناقض ـ ابتداء ـ للبديهيات الإسلامية، فيما يشبه تبرير حاصل جمع برتقالة إلى تفاحتين بأنه يساوي ٣!!

إذا كان ذلك تقليداً لما شهدته الساحة الغربية، حيث جاءت العلمانية دواء ناجعاً للقضاء على تسلط الكنيسة اللاعقلاني واللاعلمي على مقدّرات العلماء والباحثين، وإرغامهم على التسليم بمقولاتها الرجعية الخاطئة، فذلك هو الخطأ الكبير الذي يقول عنه الداهية الفرنسي العجوز تاليران: (إنه خطأ والخطأ أكبر من الجريمة)، لأنه في الإسلام، وكما يقول الباحث البريطاني المعاصر روم لاندو في كتابه (العرب والإسلام): مضى الدين والعلم معاً على الطريق، يعزّز أحدهما الآخر، لأنهما معاً كانا يسعيان إلى تأكيد وجود الله سبحانه وتعالى...

أما إذا كان ذلك سوء فهم لمطالب هذا الدين، وعدم إدراك لمقاصده الأساسية، فهو الموقف الذي يتطلب نقاشاً...

أتراهم لم يقرؤوا كتاب الله بعقل منفتح مرةً واحدةً... مرةً واحدةً فقط... حيث تترى فيه هذه الآيات: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

أتراهم لم يقرؤوا الآية الكريمة التي تجعل الحكم في السماوات والأرض... أي التشريع... بيد الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]...

أتراهم لم يتساءلوا يوماً: كيف يمكن تنزيل أحكام الشريعة الإسلامية على كافة مفاصل الحياة الفردية والجماعية والفردية، دونما دولة تقوم مؤسساتها بتنفيذ ذلك التنزيل؟

أتراهم لم يقرؤوا التاريخ الإسلامي، بالجهد المطلوب، ذلك التاريخ الذي بدأ منذ عصر الرسالة بالبحث عن البيئة الملائمة لإقامة دولة الإسلام، وكيف جاءت رحلة رسول الله (ﷺ) إلى الطائف، واتصاله ببضع عشرة قبيلة، ثم مبايعته للأنصار في بيعتي العقبة الأولى والثانية... تأكيداً على ضرورة إقامة الدولة، التي لا تكتفي بتنزيل شريعة الله على أرض الواقع، وإنما ـ أيضاً ـ تسعى لحمايتها من التآكل والعدوان؟

ثم ألم يروا كيف أن المسلمين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وجثمان الرسول (ﷺ) لم يوارَ الترابَ بعد، لحلّ إشكالية الخلافة، ثم ما لبثوا أن انتخبوا أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) الذي مضى خطوات واسعة، ومن بعده إخوانه الراشدون، في تأكيد مفاهيم الدولة الإسلامية؟

أتراهم لم يطّلعوا ولو عَرَضاً، على منظومة الفقه الإسلامي الخصبة في سياقاته كافة: الفقه المقاصدي، وفقه الموازين، وفقه

سدّ الذرائع، والمصالح المرسلة، وفقه الفتوى... لكي يروا بأمٍّ أعينهم كيف تمت الإجابة على كل الأسئلة المتعلقة بالدولة الإسلامية، صغيرة كانت أم كبيرة؟

مهما يكن، فإن من حقهم ألّا يقرؤوا، ولا يروا، ولا يتفحصوا... وأن يظلوا على عماهم بخصوص هذه القضية الأم من العقيدة والفقه والتاريخ الإسلامي...

لكن ليس من حقهم أن يسعوا إلى إرغام الإسلاميين على التخلّي عما هو معلوم من الدين بالضرورة...

أليس ذلك ـ مرةً أخرى ـ هو الخطأ الأكبر من الجريمة؟

حقاً إن هؤلاء العلمانيين يشرِّعون من الدين ما لم يأذن به الله، فيمارسون بذلك الظلم الذي يتوعدهم الله عليه بالعذاب الأليم... وصدق الله العظيم...



٤٠

أليس لي ملك مصر؟!

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٦].

إنها دراما الطاغوت في كل زمن ومكان...

يقف منتفشاً، وهو يرى البلاد والعباد قد دانا له بالطاعة المطلقة... بالخضوع والخنوع... حيث لا يجرؤ أحد أن يصرخ بكلمة (لا)... بل أن ينبس بها... بل أن يردّدها بينه وبين نفسه... بل أن تدور في خاطره... لقد انتزع منهم الفرعون كل مقوّماتهم الذاتية... سلبهم الحرية والإرادة... دمّر تكوينهم الشخصي... وخصوصياتهم... أتى على رغباتهم الخاصة وأمنياتهم من الجذور... حوّلهم إلى مجرد ركام متناثر من الأشياء... أو ببغاوات تردّد دون وعي أو عقل ما يقوله لها ويردده على مسامعها لحظةً بلحظة ودقيقةً بدقيقة...

﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

... أفلا ترون بأمّ أعينكم أيها الدهماء، كيف أن مصر كلها، بخيراتها وأنهارها، قد أصبحت في يدي... في دائرة ملكي وتصرّفي... ولن يقدر أحد منكم من أي موقع كان، أن يمدّ يده لمشاركتي في هذا الملك، حتى ولو كان أمتاراً مربعة من الأرض...

ثم هو يمضي في بطره وغروره وتجبّره في الأرض، فيستلّ من نفوس أتباعه وعبّاده أيّ ميل للنبي الداعية، الذي جاء لكي يخرجهم من معاناتهم المبهظة هذه، فينادي مرةً أخرى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾... مِن هذا الممتهَن الذي لا يحسن نطقاً!!

ألا يذكرنا هذا كلُّه بأجهزة الإعلام الهائلة في عصرنا الحديث... بقدرتها على الكذب، وقلب الحقائق، والتلفيق، وتضخيم الأشياء، وجعل الأبيض ـ في عقول الناس وضمائرهم ـ أسودَ كالزفت والقار؟

إن الطاغوت هو الطاغوت في كل زمن ومكان... وما بين فرعون مصر القديم، وفرعونها المعاصر (حسني مبارك) مدى زمني بعيد... ولكن النبض هو نفسه... والسلوك هو نفسه... والنداء، فردياً كان أم جماعياً، هو نفسه... سواء ذلك الذي يرفعه الفرعون بنفسه، أم يرفعه (حسني مبارك) من خلال حزبه المتفرّد بالسلطة، وإعلامه الجبّار!!

وتكون النتيجة المعروفة في الحالتين أن يستخفّ الطاغية بمقدرات قومه ومصائرهم ويرغمهم على الطاعة، لأنهم انتزعوا من

أنفسهم ـ خوفاً ومذلة وانتهازية وتملقاً وجبناً ـ كل ما من شأنه أن يوقف ادّعاءات الطاغوت عند حدّها...

لكن النتيجة النهائية... القرار الحاسم... لم ولن يكون يوماً بيد هذا الطاغية أو ذاك، وإنما هو بيد الله وحده، جلّ في علاه... فما يلبث أن يصدر حكمه الأخير بإغراقهم أجمعين وجعلهم عبرةً للآخرين!!

أليس هذا في جوهره إنذار من الدرجة القصوى لشعوب الأرض كلّها... ألّا تنساق وراء شهوات الطاغوت الذي يسعى لتملك كل شيء... الأراضي والأنهار... وحتى مشاعر الناس ورغباتهم وأمانيهم وما تخفق به أفئدتهم؟

أليس هذا في جوهره استفزاز للشعوب أن ترفض الهوان، وأن تتمرد على الذل، وأن تنهض قائمةً في وجوه طواغيتها ومستعبديها، لكي تسوقهم إلى حتوفهم، وتريهم الجزاء العادل عما فعلته أيديهم؟

إن القرآن الكريم، وهو يتحدث عن حالة تاريخية، لا يأسره زمن ولا مكان، وإنما هو يكسر جدران التاريخ، لكي يمضي إلى كل تاريخ... لكي يطلّ على كل عصر... فينفخ في شعوبه روح التمرد والرفض والثورة، من أجل ألّا يظل فراعنته ينادون في الناس: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾... ومن أجل ألا يستمر طواغيته يسلطون على الدعاة والعاملين أجهزة إعلامهم وبوليسهم وأحزابهم الهائلة، لسحقهم وتدمير سمعتهم وإخراجهم من الساحة... ومن أجل ألّا يمضي الاستخفاف بعقول الشعوب وإراداتها إلى مداه فيسلبها كل شيء...

إنها الدعوة الصريحة للثورة على الطاغوت... ولقد كان من شرف الشعب المصري أن يستجيب للنداء، وأن ينهض قائماً قومةَ رجل واحد لكي يقول لحسني مبارك: لا... ثم يمضي في ثورته حتى يخرجه من التاريخ...

وإنها لوسيلة إيضاح مؤثرة لكل شعوب الأرض، أن تنهض قائمةً لكي توقف جلّاديها عند حدّهم... فالذي يحكم هذا العالم، ليس أولئك الجلادون... إنما هو الله ﷻ... الله وحده... وكفى...

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].



٤١

بحيث لا يبقى غني متخم وفقير محروم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ ـ ٧].

ويتساءل المرء في زمن الشيوعية والاشتراكية ووصول الرأسمالية الربوية إلى طريق مسدود... هل هناك صيغة محدّدة لمنع الماعون، وتجويع الناس؟ وهل هناك ـ في المقابل ـ صيغة واحدة لإعطائهم وإشباعهم والوصول بهم إلى مرحلة الكفاية؟

أبداً... فإن هناك ألف صيغة وصيغة للحالة الأولى... ومثلها للحالة الثانية...

والقرآن الكريم لا يدخل التفاصيل دائماً، وإنما هو يكتفي بإعطاء الخطوط العريضة... المرتكزات الأساسية... الشفرات الالكترونية التي تقول للناس: توقفوا هنا... تريثوا هناك... انطلقوا في الثالثة.

ولو أننا أردنا أن نبحث عن التفاصيل؛ فإننا رغم ذلك سنجدها منبثة في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وتقاليد أصحابه

والتابعين وتابعي تابعيهم... فيما يمكن القول معه أن الإسلام هو (ثورة اجتماعية) لتحقيق العدل الاجتماعي بمعنى الكلمة... ثورة بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من قيم ومعانٍ.

فبدءاً من الآية الكريمة المذكورة في سورة تحمل اسم (الماعون) بدلالته المقصودة على الإشباع، نلتقي بمفردات حاسمة توحي بما ذهبنا إليه... فالذي يكذب بالدين، وهو أعظم أنواع التكذيب خطورةً؛ إنما هو ذلك الذي (يدعُّ اليتيم)، و(لا يحضُّ على طعام المسكين)، والذي يسهو عند صلاته وهي أعظم أنواع العبادات، ويرائي فيما هو من أكثر الخصائص اللاأخلاقية دناءة... ثم هو بعد هذا كله يمنع الماعون فيقود إلى استشراء الجوع في الجماعة التي ينتمي إليها.

ولنتمعّنِ في مفردة «**يحضّ**» على طعام المسكين، والتي تنطوي على أقصى صيغ الدعوة إلى العدل الاجتماعي، وتكافؤ الفرص، وإشباع الجائعين...

ونمضي مع كتاب الله لنلتقي بآية أخرى تأمر بتوزيع الفيء والغنائم على الفقراء والمحتاجين ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧] أي ما يشبه الكرّة التي يحتكر تداولها الأغنياء ويحجبون خيراتها عن الفقراء...

ولنتابع مجموعة من الآيات التي تشن هجومها على الترف والمترفين، وتتهددهم بأقسى أنواع العقاب:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٥].

وهذا لا يعني أبداً تعليق الجزاء على جريمة الترف إلى يوم الحساب، وتجميد الإرادة البشرية عن العمل لوقف الجريمة وإعادة حالة التوازن، ولهذا يعلن القرآن: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هـود: ١١٦ ـ ١١٧]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وتبقى سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ، وتتخذ من المترفين أداةً تسوق بها القرى والدول والجماعات والأمم نحو مصائرها المفجعة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٤].

وآية أخرى تحملنا إلى عصر الرسول (ﷺ)، وهو يتلقى عتاب الله سبحانه وتعالى، إذ تصدى لأحد أغنياء مكة وطمح أن يجلبه إلى حظيرة الإيمان، وأعرض عن فقير أعمى هرع إليه لكي ينتمي إلى ندائه. ويبيّن له كيف أن (الذكرى) أجدى مع هؤلاء منها مع أولئك في أغلب الأحيان: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ٧]...

وآية أخرى تجتاز بنا المسافات إلى أواخر العصر المدني، حيث النفير العام الذي أعلنه الرسول (ﷺ) لقتال الروم عام (٩هـ) في المعركة المعروفة بتبوك، فتلقي مسؤولية التخلف على

(الأغنياء)، الذين رفضوا أن يستجيبوا للنداء: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]...

وأية ثالثة تعرض علينا ـ بسخرية واستهجان ـ إحدى مقولات اليهود المادية، أرباب الذهب والفضة، وهي مقولة مضحكة حقاً، لكن بريق الذهب ورنين الفضة يعميان ويصمّان: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وفي أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ترد الدعوة لإطعام الفقراء والمساكين وسدّ حاجاتهم الأساسية، وفي أكثر من أربعين موضعاً يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات، وتقييم دافعيها والتنديد بمانعيها، وفي أكثر من سبعين موضعاً يتردد ذكر الإنفاق وتسلط عليه الأضواء من زواياه كافة، وفي أكثر من موضع يجيء التأكيد على أن هذا العطاء ليس تبرّعاً ولا منّاً ولكنه (حق) السائلين والمحرومين: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ولا أريد أن أطيل وقد أشبعت الموضوع بحثاً في كتابي (مقال في العدل الاجتماعي)، وإنما هو تعقيب سريع على ما ورد في سورة الماعون... وأنها ـ بحق ـ تعلن عن ثورة اجتماعية للحض على إطعام الجوعى، بحيث لا يبقى هناك في المجتمع الإسلامي غني متخم وفقير محروم.

٤٢

نحن العلميّون!!

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

فصّلناه على علمٍ!!

إذن فإن كتاب الله المنزل من السماء على نبيّنا العظيم محمد (ﷺ) هو كتاب مفصّل على علم... وأي علم يفوق علم الله سبحانه وتعالى الخلّاق، الذي يعرف من خلق وما خلق وهو بكل شيء عليم؟

ويخسأ كل أولئك (العلمانيون) الذين يدّعون العلمية، والروح العلمية، ويتهمون الإسلاميين بالتخلف واللاعلمية يخسؤون لأنهم لم يحاولوا أن يقرؤوا كتاب الله بالتجرّد العلمي الذي يدّعونه، مرة واحدة، لكي يروا بأم أعينهم تأكيده المتواصل في سبعمائة وخمسين مرة على العلم!!.. وإدانته في عشرات الآيات ومئاتها لأولئك الذين يشرّعون للناس «بغير علم»... ودعوته في عشرات الآيات ومئاتها، لاعتماد المنهج، والدليل، والحجة، والبرهان العلمي، والجدل بالتي هي أحسن مع الظواهر والموجودات والأشياء، ومناداته في عشرات الآيات ومئاتها، بضرورة إعمال العقل والحواس في كل ما يتعامل

معه الإنسان، من أجل الوصول إلى الحقائق اليقينية الثابتة... وحملته المتواصلة في عشرات الآيات ومئاتها على الخرافة، والأساطير، والدجل، والسحر والكهانة والظنون والتحزّبات والأهواء، فيما هو نقيض العلم ابتداء...

فماذا يأخذ الإنسان من شواهد القرآن وماذا يدع؟ إذا كان كتاب الله كلّه، من بدئه حتى منتهاه، مترع بهذه القيم والتعاليم العلمية الصارمة؟

ومرةً أخرى، ألم يقرأ العلمانيون، مرةً واحدة، كتاب الله بعقول منفتحة، لكي يروا بأم أعينهم أننا أمة العلم، والعلمية، والروح العلمية، والمنهج العلمي... وأن أجدادنا زمن تألقهم الحضاري هم من اكتشف منهج البحث العلمي التجريبي، وأشاعوه بين الأمم، وأن الغربيين بنوا حضارتهم المعاصرة، فيما بنوه، على تلك الأسس التي تلقوها عن المسلمين، فيما يعترف به كبار المستشرقين المعنيين بتاريخ العلم العالمي من أمثال: (الدومييلي) الفرنسي، و(جورج سارتون) الأمريكي، في مؤلفاتهما الضخمة عن هذا التاريخ.

ولنقرأ بعض الشواهد، من بين العشرات والمئات، لعلها تردّ أولئك العلمانيين عن الاستمرار في توجيه اتهاماتهم الباطلة للإسلاميين في دينهم وعقيدتهم وشريعتهم وتاريخهم... ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم

مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١]، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١١٥]، ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿إِن

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣].

وأغلب الظن أن هذا يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد... ولكن من أين نأتي بالقلوب البصيرة، والأسماع الحساسة، والشهداء الصادقين... والعلمانيون يصرّون ـ وهم يتعاملون مع هذا الدين ـ على وضع الشمع الأحمر على منافذ قلوبهم وأسماعهم، ويرفضون بشكل قاطع أن يدلوا بشهادة الحق؟!

ولكن، وكما يقول القرآن، بأسلوبه الساحر، ولغته المؤثرة الموجزة: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]... إنهم يدّعون أنهم هم العلماء، وينتفخون بهذا الادّعاء الباطل، رغم قيام بنيانهم على المصالح والظنون والأهواء... بعيداً عن العلم والمنهج العلمي... وهم بهذا يعيدون تمثيل الدور نفسه الذي مارسه الجاهليون من قبلهم باتهام الرسول (ﷺ) بالسحر والكهانة...

إنها الخطيئة نفسها تنسحب على أحفادهم العلمانيين!!



٤٣

الإصلاح في المنظور القرآني

إن الإصلاح في المنظور القرآني يشمل عالم الأشياء والموازين المادية إلى جانب الإصلاح بمفهومه القيمي، وليس كما يتوهم الكثيرون من أنه لا يعنى بالماديات والأشياء!!

ونحن نقرأ ـ على سبيل المثال ـ في كتاب الله تحذير النبي شعيب (عليه السلام) لقومه في واحدة من أشد القضايا التصاقاً بالحياة المادية والمعيشية: الميزان... فيناديهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣].

ها هنا وهو يحذّر من التلاعب والغش في الميزان، ترد عبارة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، وتليها عبارة: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

إذن فإن الإصلاح الذي جاء الأنبياء (عليهم السلام) لكي يدعوا إليه، وينفذوا سننه في الحياة، ويعيدوا صياغتها بالحق والعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض... يشمل الأمور المادية، والمعيشية، والعمرانية، وعالم الأشياء، تماماً كما ينطوي على القيم والسلوك والفكر والاعتقاد.

فهو دين التوازن بين الثنائيات، التي تقاتلت واصطرعت في كل المذاهب الأخرى، وضعية أم دينية محرَّفة، وتصالحت وتوافقت في الإسلام... ثنائيات من مثل الله والإنسان، السماء والأرض، الدنيا والآخرة، الفناء والخلود، الروح والجسد، والإصلاح المادي والمعنوي على السواء...

إننا منذ البدء أريد لنا كأمة أن نكون في قلب الفعل الحضاري من خلال المثلث القرآني المعروف: عالم قد سُخر لنا، نحن الذين استُخلفنا عليه، من أجل أن نبنيه ونعمره وفق الآية القرآنية: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١].

والفعل الحضاري ينطوي بالضرورة على المادي والمعنوي معاً، دونما إغفال لأي جانب أو مفردة من مساحتهما الواسعة... ونحن نتذكر ها هنا مقولة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)**... فالذي يرجو أن يعيش أبداً لا بدّ أن يهيئ الأسباب المادية والمعنوية معاً... ونتذكر كيف أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما كان يشارك أصحابه بناء مسجد المدينة الذي سيقدّر له أن يقلب عروش كسرى وقيصر على رؤوس أصحابها، ويغيّر القيم والمقدرات كان يعقّب على نشيدهم:

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

بقوله: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة**»... إذن فهو يعمل لإعمار الدنيا، وبناء مؤسساتها، كان

يضع الآخرة قبالته دوماً، لأنها المستقر والحياة الأبدية... وبهذا يحقق التوازن بين المادي والعمراني وبين الروحي والمعنوي...

بل إن الدولة الإسلامية التي سعى (ﷺ) لإقامتها في يثرب انطوت هي الأخرى على هذا المفهوم المتوازن بين المادي والروحي... فشرع لها الدستور، وبنيت لها المؤسسات، وحلّت مشاكلها الاقتصادية بإجراءات عملية... وشكّل جيشها المقاتل الذي سيدافع عن مقدّراتها، جنباً إلى جنب مع ما ينطوي عليه هذا الدين وتشريعاته من شبكة من الأوامر والتعاليم ذات أبعاد روحية وأخلاقية وسلوكية...

ثم كيف يقدّر لشريعة الله أن تنزل إلى الواقع، وأن تحكم الأرض، وتعيد صياغتها وفق تعاليم الله ورسوله إن لم تتلقاها (دولة) تملك من الإمكانات المادية بكل تفاصيلها، ما يمكّنها من تنفيذ تلك المهمة الصعبة التي أنيطت بها؟!

على أية حال، فإن القرآن الكريم وهو يتحدث عن الموازين اليومية التي توزن بها الأشياء المستعملة من قبل الناس، كان يؤكد في الوقت نفسه على الموازين الكبرى، الأبدية، الدائمة... موازين الحق والعدل... اللذين قامت عليهما السماوات والأرض: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]... ها هنا حيث تنقل كلمات الله الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن إسار اللحظة التاريخية إلى المطلق، ومن الحيّز الجغرافي المحدود إلى العالم والكون... ومن الميزان الذي توزن به الأشياء والحاجيات اليومية إلى الميزان الذي أريد له أن تسير بموجبه السماوات والأرض...

وفي كل الأحوال، فإن ما تؤشر عليه هذه المسائل جميعاً، أن الإسلام جاء لصياغة حياة وضيئة، سعيدة متوازنة... يلتقي فيها المادي والروحي بتوافق يستحق الإعجاب!!



٤٤

كل شيء في محلّه

يمكن اعتبار جهد الإسلام، وهدفه يتمثلان في **«وضع كل شيء في محلِّه»** و**«تحقيق أقصى درجات التناسب بين الإنسان وبين الأشياء والكائنات الأخرى»**.

وهذا ينعكس في كافة الدوائر التي تبدأ بالإنسان فرداً، والإنسان في أسرة، ثم في محلة، ثم في مدينة، ثم في قبيلة، ثم في شعب، ثم في أمة، ثم في العالم، ثم في الكون...

إنه الصراط المستقيم الذي حدثنا عنه كتاب الله في أكثر من مكان... الصراط الذي يجتازه المسلم وهو في حالة وفاق وتناسب مع كل ما يحيط به من كائنات وأشياء... متوحداً نفسياً، سعيداً أسرياً، **منسجماً موقعياً، فعالاً متوافقاً في المدينة التي يحيا فيها، والقبيلة التي ينتمي إليها، والشعب الذي ينتسب إليه، والأمة التي يفخر بارتباطه بها...** قديراً على الحركة في العالم الذي قدّر له أن يحيا فيه، مصعّداً باتجاه الكون الذي ينتظر منه الإيمان بخالقه جل وعلا، وتنفيذ مطالبه من هذا الكائن الذي أريد له أن يكون سيداً على العالمين.

المضيّ على الصراط... دونما خروج هنا أو شذوذ هناك...

دونما ارتطام هنا وتبعثر هناك... أن يحيا حياته المتوازنة، حيث كل شيء في محلّه تماماً... في ذات الإنسان، وأسرته، ومحلته، ومدينته، وقبيلته، وشعبه، وأمته، وعالمه... والكون الذي يضطرب في جنباته، ويتطلع إلى أن يمارس دوره المرسوم فيه...

المضيّ على الصراط الذي طالما حدثنا عنه كتاب الله في أكثر من مكان: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣ ـ ٧٤]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥٣]، ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

ومفتاح التزام الصراط من بوابته الحقيقية هو الإيمان، الذي به تتحقق معجزة التوافق في مسيرة الإنسان بينه وبين العالم الذي يضطرب فيه، بكل مفرداته وحلقاته... وبنور الإيمان وإضاءاته الكاشفة ينطلق الإنسان على الطريق المستقيم، ويبني علاقاته مع

الأطراف كافة على الاستقامة... على وضع الأشياء كافة في أماكنها المقدرة لها، والتعامل معها بأقصى درجات التلاؤم والوفاق...

وبدون الإيمان يكون الإنسان قد اختار السبل المعوجّة التي تتفرق به عن الصراط، وتضعه في حالة تنافر وارتطام مع ذاته، مع بيئاته المحلية، ومع العالم والكون الذي يضطرب فيه فيلقى من صنوف التعاسة والتمزق، والازدواج، والشقاء، والضياع، وفقدان الإحساس بالسعادة والائتمان الذاتي ما يدفعه إلى الانشقاق عن المجتمع الذي ينتمي إليه، والتمرّد على مواضعاته وأعرافه، فما يزداد إلا تعاسةً وضياعاً...

من أجل ذلك كتب على الناكبين عن الصراط أن يلقَوْا جزاءهم العادل في الدنيا قبل الآخرة، وأن يعانوا من القلق والضيق، والتمزق والاكتئاب، ما يدفعهم إلى الهروب إلى المخدّرات، فلمّا تعجز عن إنقاذهم يلجؤون إلى العقاقير والمغيبات... فلمّا تتشبع بها دماؤهم ولا تقوى من ثم على منحهم الأمن والسعادة والتوحّد الذي يتوقون إليه... فليس ثمة بعد ذلك للخلاص سوى الانتحار!!

وها نحن نجد حالات الاكتئاب المركّز، واللجوء إلى الانتحار، تتزايد في معدلاتها في أكثر الدول تمدّناً وتحضّراً... في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تبلغ النسبة (١) من عشرة من الأمريكيين... وفي اليابان، حيث رصدت الدولة عام (٢٠١٠م) مبلغاً قدره ثلاثون مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في الساحة اليابانية لسنة واحدة... وثمة في غير هذين البلدين الكثير الكثير مما يعلن أو يقال...

إن الإنسان وقد نكب عن الصراط الذي جاء هذا الدين لكي يقوده إليه، هنالك حيث يجد هذا الدين وقد وضع كل شيء في محلّه... أما هو فلا بدّ وأن يتلقى الجزاء، الذي هو من جنس عمله، فيجد الأشياء والخبرات والكائنات في غير مواضعها، ويجد نفسه معها في غير موضعه... فيضيع!!



٤٥

يتساوى مع الآخرين في الحياة والموت

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٤].

إذن فهي المساواة المطلقة مع الآخرين... فليس ثمة تميّز، ولا استثناءات... ولا تفرّد أو خصوصيات، كما هو الحال في المذاهب والأديان المحرّفة الأخرى...

أُمرت... هكذا... بهذا الحسم الذي تعامل به رسول الله (ﷺ) مع ما يجيئه من السماء... من الله ﷻ الذي بعثه للناس بشيراً ونذيراً... أُمرت لأن أكون أوّل من يعلن إسلامه، فأتلقى الملاحقة والأذى والاضطهاد... وهو (ﷺ) وحاشاه، يعلن عن خوفه، أسوةً بسائر الناس، من عصيان ربّه وتلقي العذاب العظيم يوم الحساب... ومن ثم، فإن عليه أن يخلص في عبادته لله... وأن يجعل حياته وسيلةً ايضاح لكل أبناء أمته، الذين جاء لكي يخرجهم من الظلمات إلى النور...

إنها مرةً اخرى المساواة المطلقة بين النبي والأتباع... بين القيادة والجماهير... بين القمة والقاعدة... هنالك حيث يجد الناس أنفسهم وقد تساووا مع نبيّهم ومعلّمهم وقائدهم في الالتزام بالأوامر الإلهية، والخوف من عصيانها أو التمرّد عليها...

ولقد كانت حياة الرسول (ﷺ) كلّها مصداقاً لهذا المفهوم، ورفض حتى آخر لحظة من حياته أن يتميز عن أبناء أمته... وكان يقول لهم: «**لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم لأكاسرتها**»...

ويقول لرجل جاء ليصافحه فدفعه جلال النبوة إلى أن ترتجف يده: «**هوّن عليك، فلست أنا سوى ابن امرأة كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق**»...

وعندما خرج وأصحابه لتشييع ابنه الصغير إبراهيم (عليه السلام) وحدث أن كسفت الشمس في ذلك اليوم، أشاع بعض المحيطين به أنها إنما انكسفت حزناً على وفاة ابن الرسول. فما كان منه إلا أن أعلن رفضه لهذه المقولة التي تضعه فوق الناس: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد من الناس**)!!

ويوم مرضه الأخير أمسك بالدّرة وطاف بها بين زائريه وقد كشف ظهره الشريف قائلاً: «**ألا من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه**»!!

أي تجرّد هذا عن الذات بالنسبة للنبي الذي هو سيد الأنبياء جميعاً... بل سيّد البشرية قاطبةً... وأية مقاومة مدهشة لإغراءات الفرادة والتميّز التي يتحلّب لها ريق الفراعنة والزعماء والطواغيت؟!

هذا في الوقت الذي نشهد فيه، بالنسبة للأديان الأخرى، تلك الطبقية الإكليروسية، حيث تقف طبقاتهم العليا في القمة، شامخةً مترفعة مستعلية، حتى في شاراتها وملابسها الملونة الزاهية، وتقف الطبقات الدنيا في القاع ذليلةً، تابعة، خانعة، مطيعة، منكّسة الرؤوس!!

فإنك يا رسول الله!. قد ضربت مثلاً عملياً في سلوكك، وبما تلقيته من تعاليم السماء، على مفهوم المساواة بين الناس، في أكثر صورها تألقاً، وإنسانيةً، وعدلاً...

ليس هذا فحسب، بل إنه يتساوى مع الآخرين في الموت كذلك، ولهذا دلالته بكل تأكيد... ونقرأ في كتاب الله:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

إنه (ﷺ) معهم في الحياة والموت... لا فرادة ولا تميّز... والقرآن الكريم يعلنها بوضوح: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

فهو إذن الأمر الإلهي في أن يؤمِّمَ حياته ومماته، بكل مفرداتهما وتفاصيلهما، لله جلّ في علاه، وأن يقود أمته إلى هذا التأميم الذي تنذَر له الحياة والموت... من أجل كلمة التوحيد، وملاحقة الشرك بكل صنوفه وأنماطه...

في الأديان المحرّفة الأخرى... وفي التقاليد الوضعية

الخاطئة... حيث يغيب مفهوم التوحيد، وينتشر الشرك والطاغوتية والتميز والابتزاز... يظل السادة سادةً والعبيدُ عبيداً، حتى في التقاليد والطقوس المرتبطة بالموت... ولطالما شاهدنا بأم أعيننا على الشاشات التلفازية، تقاليد التشييع التي يحظى بها زعماء الدول ورجال الدين الكبار... وكأن أتباعهم وعبيدهم آثروا أن يظلوا محنيي الرؤوس، منكسري الأظهر حتى بعد رحيل سادتهم الكبار...

فأي فارق عظيم هذا بين ديننا وبين أديانهم...؟! وبين نبيِّنا وبين زعمائهم وطواغيتهم... أليس هو النبيُّ المبعوث لتحرير الناس من كل صنوف القهر والاستعباد.. ووضعهم جميعاً... غنيّهم وفقيرهم... أسودهم وأبيضهم... حاكمهم ومحكومهم... في مصافٍّ واحد، معياره الأول والأخير هو إنسانية الإنسان، وتقواه... وعمله الصالح؟!



٤٦

وحدة الأنبياء

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

ذلك أن دين الله واحد... ونبوّاته واحدة... وأنبياءه ورسله إخوة متوحدون على الطريق... يحملون الخطاب الواحد... ويقودون الأمم والشعوب إلى الصراط الواحد... ويمضون بهم صوب الهدف الواحد...

كل نبيٍّ أو رسولٍ يجيء لعلاج مشاكل ومعضلات عصر واحد، ويتمّم البناء الذي بدأه من سبقه من الرسل والأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤، التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]... حتى إذا بلغنا رسالة محمد (ﷺ)؛ فإننا سنجد أنفسنا أمام وضع اللمسات الأخيرة في البناء، الذي سيقدّر له أن يمضي بخطابه إلى كل عصر وكل مكان، حيث تسقط الحواجز

التاريخية والحدود الجغرافية... ويعلو الخطاب لكي يتوجه إلى البشرية كافة في كل زمن ومكان: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

إنهم جميعاً يتلقَّون الإشارة، والتعاليم، والشرائع، ومناهج العمل، من مصدر واحد هو الله جلّ في علاه... فليس ثمة أي قدر من (التغاير) في نبض المنهج وهدفه... إنما هو التكامل والتوافق الذي تنطوي عليه الأديان السماوية كافة...

هذه مسألة معروفة... وهي من المعلوم من تاريخ النبوّات بالضرورة... ولكن هناك من يخرج عليها... يتمرّد على نواميسها، ويسعى لهذا السبب أو ذاك إلى التفريق بين الرسل والأنبياء كحزب واحد يتحرك صوب هدف واحد، ويتلقى عن مصدر واحد، ويقول: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فكأنهم يسعون إلى تمزيق النسيج الديني المتوحد، برؤية انتقائية تنبني على المصالح والأهواء والشهوات، وبذلك يعطلون (الدين) عن العمل، فيما يسوقهم بالضرورة إلى الكفر الصريح.

ففيما يتعلق بوحدة الأنبياء، نجد أنفسنا أمام نمطين من الخطاب القرآني... خطاب يحكي عن موقف المؤمنين الحق من التسوية بين الأنبياء: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وخطاب

يحكي عن الله ﷻ الذي يفضل الرسل بعضهم على بعض: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فهو الخلاق العليم... ذو المشيئة المطلقة... وله جَلَّ جَلَالُهُ أن يفضِّل بعض الرسل على بعض، وأن يجتبي منهم من يشاء... فهم في الجهد الذي بذلوه مع أقوامهم ليسوا سواءً... وفي العنت الذي تلقَّوْه من أقوامهم ليسوا سواءً... وهم في صِلاتهم بخالقهم جلّ وعلا ليسوا سواءً...

هذا هو المنظور الفوقي الذي يرفع خطابه العادل مع الرسل والأنبياء... أما في المنظور التحتي الذي نتعامل به نحن البشر معهم، فالأمر يختلف... وعلينا أن نؤمن بهم جميعاً، ونحترمهم جميعاً، وألّا نفرّق بين أحد منهم... لأن ذلك يخرجنا عن الحق الذي بعثوا به جميعاً إلى دائرة الكفر والفسوق والعصيان... والذي قاد بني إسرائيل إلى أن يقتلوا العديد من أنبيائهم بسبب هذه الكراهية... والتفريق الذي ما أنزل الله به من سلطان: (البقرة ٦١، ٩١) (آل عمران ٢١، ١١٢، ١٨٣).

إنه الصراع الأبدي، منذ لحظة خلق آدم (عليه السلام) وإلى أن يقوم الحساب... بين الحق والباطل... وبين الإيمان والكفر... وبين الصراط المستقيم والطرق المعوجة، وبين عبادة الله وحده وعبادة العباد، وبين الإنسان والشيطان... والذي بُعث الرسل والأنبياء كافة لكي يتولَّوْا كبره، ويقودوا بني آدم إلى الخلاص... وهم جميعاً يحملون المهمة الواحدة عينها، ويسعون بالبشرية إلى الغاية نفسها،

ويلاقون من الأذى والاضطهاد ما يلاقوا، لأنهم مأمورون أن يصبروا على هذا كلّه لإنجاح مهمتهم... من أجل ألّا تكون فتنة ويكون الدين لله...



٤٧

فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وبهذا يضع كتاب الله معياراً أبدياً ثابتاً، لا يتغير ولا يتبّدل، لا يميل ولا يجور، من أجل حماية الجهد البشري من الضياع...

والحق، أن إحدى معضلات الإنسان في هذا العصر، وفي كل عصر، هو إحساسه بضياع جهده، واعتقاده بأنه مهما بذل وسعى؛ فإنه لن يقدر على الوصول إلى الهدف الذي وضعه نصب عينيه... ذلك أن قوى شتى هي فوق طاقته، تسحبه إلى الأسفل، حيث يبدأ من جديد... والنتيجة... لا شيء على الإطلاق...

إنها صخرة «سيزيف» التي تحدثُنا عنها الميثولوجيا اليونانية، والتي استمرت حتى العصر الحديث تنفخ في عقول الغربيين، أن السعي البشري باطل الأباطيل وقبض الريح... وأنهم كلما أفنَوْا أعمارهم في حمل الصخرة والصعود بها إلى القمة، انحدرت بهم مرةً أخرى إلى القرار السحيق، لكي يعاودوا الكرّة... وليس ثمة شيء على الإطلاق...

ويتجلى هذا أكثر ما يتجلى في الأعمال المسرحية، وبخاصة تلك التي تنتمي إلى مذهب (العبث) أو المذهب الطليعي، الذي كتب فيه أدباء كبار كديرنمات ويونسكو وأنوي وبكت وجان جينيه، وأسس له الكاتب الوجودي المعروف (ألبيركامي).

ولا ريب أن اعتقاداً عبثياً كهذا يدفع المؤمنين به والمنتمين إليه إلى تلك الرؤية السوداوية، التي يمكن أن تتمحور تحت العبارة التشاؤمية التي أطلقها (كامي): (ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى)!!

في المنطوق القرآني... الأمر يختلف تماماً... فليس ثمة جهد ضائع على الإطلاق، حتى لو كان بمقدار مثقال ذرة... إنه مسجّل في الرصيد المفتوح للإنسان... قد يقطف ثماره هنا في الحياة الدنيا، وقد يقطفها هناك في الآخرة... وفي الحالتين فإن على المرء أن يعمل... أن يواصل الجهد... أن يشمِّر عن ساعد الجد من أجل بناء الدنيا وتقديم إضافات متميزة للحياة... وهكذا يصير هذا الخطاب القرآني حافزاً للفعل الحضاري، دافعاً للتقدم دائماً إلى الأمام... ويلغي، بل يستأصل من الجذور، أيَّ بعد تشاؤمي أو رؤية عبثية، ترى في الجهد المبذول شيئاً لا معنى له... لأننا ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى!!

الإنسان المسلم مشروع مفتوح للتحقق، والعطاء، والصعود إلى أعلى... وهو عبر رحلته هذه بين محطات الإسلام، والإيمان، والتقوى، والإحسان، لا يحقق الكسب (لنفسه فحسب، بل لأمته، وللحضارة التي يغنيها بالمزيد من الجهد والمزيد من المكاسب...).

وليس الموت في المنطوق الإسلامي هو بوابة مقفلة، أو طريق مسدود... ولكنه نقلة منطقية تماماً من عالم إلى عالم، ومن حالة دنيا إلى حالة عليا... هنالك حيث سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه في الحياة؛ إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر...

ومرةً أخرى فليس ثمة جهدٌ ضائع على الإطلاق، حتى لو كان بمثقال ذرة، أو حبة من خردل: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

إن هذا التصوّر الايجابي للجهد البشري، يتحتم أن يدفع الدعاة والعاملين لهذا الدين إلى أن يواصلوا سعيهم في الأرض، حتى لو تعرّض جهدهم للانتكاسة أو الضياع الموقوت، مرةً تلو المرة، لأن هذا الجهد مدَّخر لهم يوم الحساب، مسجَّل في رصيد حسابهم الإيجابي الذي سيتم التعامل مع أرقامه يومذاك... ومن ثم فإن عليهم ألّا ييأسوا، حتى ولو لم يقدّر لهم أن يروا بأم أعينهم حصادهم الموعود...

والقرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم بقوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [الرعد: ٤٠].

عليك إذن يا محمد بالبلاغ... أن تمضيَ به في مشارق الأرض ومغاربها، لكي توقظ النائمين، وتحرِّكَ الكسالى القاعدين، وتفتح أبصارهم وبصائرهم على الحق... عليك أن تمضي في مهمتك هذه،

ولا يهمك بعدها أن تجد نتاج جهدك هذا متحققاً في حياتك أم لا... فإن عليك البلاغ وعلينا الحساب...

ومع ذلك، فإنه ما من جهد يبذل بإخلاص النيّة لله في الحياة الدنيا؛ إلا وهو يتمخض عن حصاده الموعود، إن لم يكن اليوم، وإن لم يكن غداً، فبعد غد...

الجداول الصغيرة التي تتدفق هنا وهناك؛ لا بدّ أن تصير نهراً كبيراً...

وها هي ذي الصحوة الإسلامية تنهض قائمةً في مشارق الأرض ومغاربها، بعد أن تلقت من مطارق الخصوم وعذابهم وفتنتهم ما تلقت مما تشيب لهوله الولدان... تنهض قائمة كأقوى ما تكون... لكي تؤذن بالفجر الإسلامي الجديد...



٤٨

ثم جعلناك على شريعة من الأمر... فاتبعها!!

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

إنه الأمر الإلهي الواضح، البيّن، المستقيم... انك يا رسول الله، وكل الذين سيحملون الأمانة من بعدك، قد تلقيت منا الشريعة السمحاء... العادلة... المستمدة من علم الله المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... والذي هو أعلم بمن خلق... وهو اللطيف الخبير...

الشريعة القسط، التي تنطوي على موازين الحق والعدل... والتي تقود الناس إلى الصراط المستقيم، الذي يمضي بهم إلى الأمام، دونما أي قدر من العوج والالتواء...

الشريعة التي تجيء موازية تماماً لهموم الإنسان في العالم... مستجيبة لمطالبه... مجيبة على أسئلته الكبرى... مخططةً لحياة متوازنة، سعيدة، آمنة، متوحدة، مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان...

الشريعة التي ترسم برامج العمل، المحكم، الدقيق، في تعامل الإنسان مع ذاته، وأسرته وحيّه ومدينته، ومع أمته والعالم والكون الكبير...

فاتَّبِعْها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون!!

ذلك أن كل الشرائع الأخرى... كلَّ المذاهب الوضعية والأديان المحرّفة... كلَّ المبادئ والدعوات القومية، والأممية، واللونية، والطبقية، والجغرافية... إنما هي في بدء التحليل ونهايته شرائع جاهلية لأنها تصدر عن الظنون والأهواء... والجهل... وكل أولئك الطواغيت الذين (لا يعلمون)...

لا يعلمون...

إذن، فإن ادّعاءهم العلمية، والتقدمية، ومناداتهم بالإنسانية، والعدالة، والمساواة، إنما هي باطل الأباطيل وقبض الريح... وقد تبيّن للناس جميعاً، في مشارق الأرض ومغاربها، كذب هذه الادّعاءات، لأنها جميعاً آل بها الأمر إلى السقوط والخروج من التاريخ...

وإذن، فإن الموقف العلمي الصحيح... والوحيد في هذا العالم، إنما هو شريعتنا التي أنزلت على محمد بن عبد الله، والتي أُمر باتباعها، وترك أهواء الذين لا يعلمون!!

وتأكيداً لعلمية هذه الشريعة ترد كلمة «علم»، بمفرداتها المختلفة، في كتاب الله في حوالي سبعمائة وخمسين مرة... ومعها دعوة لاعتماد العقل والحواس في التعامل مع الظواهر والأشياء:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]...

ومع العقل والحواس اعتماد منهج البحث العلمي القائم على الدليل والبرهان والجدل بالتي هي أحسن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥]، ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]، ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومع هذا وذاك حملة قرآنية شاملة ضد اعتماد الظنون والأهواء والأساطير والخرافات والسحر والكهانة والتطيّر... حملة بلغ من جدّيتها أنها كنست في طريقها كل هذه المفردات الملتوية، الضالة، التي تقود إلى الفوضى والاضطراب، لأنها ليست من العلم في شيء...

وها نحن نرى بأم أعيننا تساقط المذاهب والمبادئ والدعوات الوضعية الواحدة تلو الأخرى... وكيف يضرب بعضها بعضاً، ويخرجه من التاريخ ليحلَّ محلَّه، ثم ما يلبث أن يتلقى الضربة الموجعة التي تلحقه بسابقه... كل المذاهب والمبادئ والدعوات على الإطلاق: ادّعاءات الاستعماريات القديمة بتفوُّق الرجل الأبيض وقيمومته على العالم... الاشتراكيات الطوباوية... الشيوعية... الوجودية... القوميات

الشوفينية، الأديان المحرّفة، التي يأتينا كل يوم نبأ عن انحرافاتها ومخازيها الدينية والسياسية والجنسية... الرأسمالية التي عانت ولا تزال من الاختناقات القاسية بسبب من توجُّهها الربوي... ثم النظام العالمي الموحّد أو الجديد ذو القطبية الأحادية، الذي ما لبث، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، أن جُوبه باستقطابات جديدة ترفض توحّده في قيادة العالم... فنظريتا (نهاية التاريخ) و(صراع الحضارات)، اللتان أبحرتا ضد قوانين الحركة التاريخية، فأثبتتا عقمهما وعدم قدرتهما على الاستمرار...

ثم ها هي المذاهب الأدبية التي لم يقرّ لها قرار ما بين الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة والرومانسية والواقعية والواقعية الاشتراكية والسريالية والرمزية والدادائية والطليعية العبثية والمستقبلية...

ثم ما لبثت تيارات ومذاهب النقد الأكثر حداثةً أن راح بعضها يكنس البعض الآخر، ويخرجه من الساحة: البنيوية، التفكيكية، ما بعد البنيوية، السيمائية... و... و... ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وهكذا يجيء التحذير القرآني لمحمد (ﷺ) وأتباعه من بعده أن يلتزموا شريعة العلم والهدى، وألا يتبعوا أهواء الذين لا يعلمون... يجيء في محلّه تماماً... وصدق الله العظيم...



٤٩

هذا هو جوهر التوحيد

طالما أكد القرآن الكريم على أن كل شيء في الكون والعالم هو بيد الله ﷻ، وأن له ﷻ مقاليد السماوات والأرض، وأنه ﷻ في السماء إله وفي الأرض إله... وأننا بكل عالمنا وموجوداتنا ملك له يتصرف بنا كما يشاء، تصرّف المالك بأملاكه... وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، وأن له ملك السماوات والأرض، وأنه يحيط بكل شيء... وأنه على كل شيء شهيد... وأنه وسع كل شيء علماً... وأنه على كل شيء وكيل... وأنه رب كل شيء... وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: **كن فيكون**... وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأنه بيده ملكوت كل شيء، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وأنه رقيب على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض... وأنه خالق كل شيء... وأنه هو الذي يحيي ويميت... وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه أحصى كل شيء عدداً، وأن من يرد الله فتنته فلن يملك له أحد كائناً من كان، شيئاً، وأنه ﷻ أحد... صمد... لم يلد ولم يولد... ولم يكن له كفواً أحد...

إن جوهر التوحيد هو هذا!!

أن الله ﷻ هو المالك، والحاكم، والمشرّع، والمحيي والميت، والأول والآخر، والظاهر والباطن، له مقاليد السماوات والأرض... لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات والأرض... وأنه يحيط بكل شيء علماً... وهو على كل شيء شهيد... لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم... وهو على كل شيء وكيل... وأنه بيده ملكوت كل شيء، وأنه وسع كل شيء علماً... وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: **كن فيكون**... وأن كل شيء هالك إلّا وجهه... وأنه رقيب على كل شيء... وأنه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض... وأنه خالق كل شيء...

تلك هي بعض صفات الله ﷻ... وهي على درجة من الثقل، والإحاطة، والقوة، بحيث أننا لو أعدنا القول فيها المرة تلو المرة تلو المرة... لما استوفيناها حقها...

والمسلم في هذا العالم عندما يتأمل في هذه الصفات التي يتفرّد بها الله سبحانه وتعالى، والتي تمثل الحدّ المطلق من القوة والقدرة والعلم والإحاطة، فإنه يفيء إلى إله يملك كل مواصفات الألوهية الحقة، التي تجعل الإنسان يستند في حياته الدنيا المترعة بالمشاكل والتحديات والأعاصير والآلام، إلى الحصن الحصين، لأنه مطمئن إلى أن الإله الذي يعبده، ولا يشرك به شيئاً، ويتوجه إليه في المسير والمصير، هو القوة المطلقة المستحقة وحدها لهذا التوجّه وذلك التوحيد...

وبمجرد مقارنة سريعة بين صفات الله ﷻ هذه، وصفات

الآلهة والأرباب في مذاهب وأديان الشرك والوثنية، تلك التي تعاني من الضعف، وعدم القدرة على نصر المستعينين بها، والتي لا تملك من أمرها شيئاً... بل تلك التي تتآمر على الخلائق، فتتسلل ليلاً ـ كما تحدثنا الميثولوجيا اليونانية ـ إلى مخادعهم، وتفترس أعراضهم، والتي تحتكر المعرفة فلا تسمح بانتشارها بين الناس... والتي تتقاتل فيما بينها فيسطو بعضها على ممتلكات البعض الآخر... والتي لا تملك القدرة على الاستجابة لدعاء المضطرين... الخ...

بمجرد مقارنة سريعة يتبين كم أن الإنسان المسلم بإيمانه العالي هذا بالإله الذي يتصف بهذه الصفات جميعاً، إنما يقف على أرض صلبة وهو يمارس حياته ونشاطه، ويتوحّد مع ذاته متجاوزاً كل حالات الازدواج والضعف والخوف... مطمئناً حتى آخر حجيرة في تكوينه إلى أنه وقد ربط مصيره بالله الواحد القدير؛ فإنه ماضٍ على الصراط، قدير على مجابهة كل قوى الضلال والشرك، التي تريد أن تجرّه صوب الطرق المعوجة، وتدمّر عليه أمنه وتوحُّده وسعادته، بتحققه بمفهوم التوحيد الأصيل...

هذه الحقيقة ذات البعد العقدي، يتحتم أن تُحيا، أن تُعاش، أن تُمارس دقيقة بدقيقة وساعة بساعة، من أجل أن يكتشف الإنسان طبقاتها المدهشة، ويتحقق بدلالاتها الكبرى.

إن هذه الحقيقة، عندما سحبتها الدراسات العلمية إلى أروقة البحث والمعادلات الرياضية، والجهد العقلي الصرف، فكأنها انتزعت منها النسغ الذي يمنحها القدرة المدهشة على تشكيل الحياة، وصياغتها...

فلندعها تعرّش في أرواحنا ووجداننا، وقلوبنا، وأفئدتنا... لكي يستمر تدفقها الأبدي الذي أريد له أن ينشئ أجيالاً من المؤمنين بالتوحيد، والذين يعيشونه من الداخل، بدلاً من أن يدرسوه من الخارج فلا ينعكس على سلوكهم وخبراتهم وتجاربهم في الحياة...

إن ما يسمى بعلم العقيدة، قد يؤدي دوره المرسوم في عقول الدارسين... ولكنه لن يتجاوز في هذه الحالة دائرة العقل والمقايسات العقلية... أما عندما يطلق سراحه لكي يتعامل مع الحياة، فإن الحالة التي سيشكلها تختلف في جوهرها عما يفعله علم العقائد...

والقرآن الكريم، بآياته التي تتحدث عن صفات الله جلّ في علاه، تريد هذا الذي أنشأت به جيل الصحابة والتابعين، وهي قديرة على أن تنشئ أجيالاً أخرى قد تحاذي جيل الصحابة والتابعين!!



٥٠

حوار أم صراع؟!

الحوار مع الآخر لن يتحقق بمؤتمرات تعقد، أو ندوات تقام بين المسلم والمسيحي أو غيره من أتباع الديانات الأخرى، تتبادل فيها وجهات النظر، وتلقى البحوث، وتحدّد التوصيات، ثم ما تلبث أن تترك على الرفوف، دون أن يكون لها مردود عملي يذكر.

الحوار... هو فعل وممارسة وسلوك ومنظومة من القيم الخلقية في التعامل مع الآخر، ابتداء بمفردات الحياة اليومية وانتهاء بمنحه الحق الكامل في الحرية، والمواطنة، والحياة، والاستمرار...

من هذا المنظور، ليس ثمة كالأمة الإسلامية قدرةً على التحقق بمطالب (الحوار) بمفهومه العملي، على مستوى التأسيسات الفقهية، أو الممارسات التاريخية.

وليس من مهمة هذا المقال متابعة المعطيات الفقهية الخصبة والمتميزة بصدد التعامل مع الآخر، وإنما مجرد التذكير بالممارسات التاريخية، التي لا تدع مجالاً للشك في أن المسيحيين واليهود من أهل الكتاب وغيرهما من الفرق الدينية الأخرى، عاشوا حياتهم،

ومارسوا حقوقهم، الدينية والمدنية، على مداها في ديار الإسلام، فيما لم تشهده، ولن تشهده أية تجربة تاريخية في العالم.

إن ألف مؤتمر للحوار لن يحمل مصداقيته، أو يقود إلى فعل متحقق، كما يحملها ويقود إليها «التاريخ» باعتباره الحكم الفصل في قدرة «المبادئ» على التماسّ مع الواقع، وتحويل «الكلمة» إلى فعل منظور.

وما بين «صراع الحضارات» لصموئيل هنتنكتون، الذي يؤكد حضور «التاريخ»، و«نهاية التاريخ» لفرنسيس فوكوياما الذي يلغي التاريخ؛ هوّة واسعة وزاوية منفرجة قد تبلغ (١٨٠) درجة، وتلك هي إحدى أزمات العقل الغربي، سواء في تنظيراته، أم عقائده، أم سياساته... إنه على ما يبدو معتقل في حتمية **«إما هذا أو ذاك»**... إما الصراع وإما الحوار، بقدر تعلّق الأمر بالموضوع الذي بين أيدينا... بينما يكسر الإسلام هذه المقولة الخاطئة ويستبدلها بمبدأ **«هذا وذاك»**... الصراع والحوار معاً... ولقد رأينا إمكانية حضور الفعاليتين معاً، سواء في تأسيساتنا العقدية والتشريعية أم في تاريخنا على امتداده الطويل.

إنها في بدء التحليل ونهايته: **«الوسطية»** التي يتميز بها هذا الدين، والتي يمكن أن تعتمد معياراً أو منهجاً نتعامل بموجبه مع سائر الظواهر والخبرات: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسطية هنا ليست موقعاً جغرافياً، ولكنها موقف عقدي، واستراتيجية عمل، ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في العالم...

إنها القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن، وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال، ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس، لأنها تطلّ عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور.

إن الغربيين وهم يحاورونا أو يصطرعون معنا لن يكون بمقدورهم أن يخرجوا من جلودهم... أن يتجاوزوا التأثيرات الدينية والثقافية... أن يناقضوا مطالبهم السياسية والاستراتيجية... أن يتخلَّوْا عن هيمنتهم ومصالحهم الاقتصادية... أن يتجاوزوا مركزيتهم الأوروبية... أن يفتحوا منافذ وثغرات في بنيانهم الحضاري ذي المكونات النصرانية والموجهات اليهودية، بموازاة الرؤية العلمانية التي قد تبلغ في كثير من الأحيان حافات المادية التي ترفض الإيمان بالغيب، وتتنكر لله...

وأخشى ما يخشاه المرء أن تنزلق الدعوة إلى (الحوار) بأصحابها صوب إحدى اثنتين:

فأما أولاهما، فواضحة بيّنة، وهي التنازل بدرجة أو أخرى، عن بعض ثوابتنا وخصوصياتنا التي تميزنا عن أبناء الديانات الأخرى، تحت ذريعة التقريب، وتذويب الحواجز الدينية بين الأمم والشعوب.

وأما ثانيتهما، فهي أشد خفاء وأبعد عن التكشف، وهي تذكرنا بتلك المحاولات (المشبوهة) التي أرادت بدعوتها إلى التسوية بين الأديان، أو في الأقل إضعاف الحواجز القائمة بينها؛ الإجهاز على الخصوصية الإسلامية من جهة، وإعطاء المبرر والشرعية لاستمرارية الأديان المحرفة، وربما الاعتراف بمعطياتها، أو بجانب منها في الأقل،

فيما قد يتناقض ابتداء مع قاعدة هذا الدين القائم على التوحيد المطلق الذي لا تشوبه أية شائبة من شرك أو تعددية أو وثنية...

فيما عدا ذلك، فإن قنوات التواصل مع الآخر كثيرةٌ جداً، ومن خلالها يمكن العبور إلى الآخر والتحاور معه، والوصول ـ ربما ـ إلى نتائج في غاية الأهمية، ولكن ذلك كلّه يتحتم ألّا يكون على حساب الثوابت التي لا تقبل مهادنةً ولا مجاملة...



٥١

اللّه... والإنسان

الذين يقولون بأن القرآن الكريم يصف الله سبحانه وتعالى بصفات القوة والجبروت والشدة، وبأنه يتوعد المخالفين بنار جهنم وبالعذاب الأليم... الخ... ينسون رؤية القرآن المتوازنة بخصوص أفعال الله سبحانه وتعالى وصفاته... فهنالك إلى جانب الصفات المذكورة: صفات الودّ والرحمة والمغفرة والرأفة والعلم والحكمة والعفو والغنى والكرم... الخ...

إننا نقرأ في كتاب الله:

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦]، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [النبأ: ٣٧]، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، ﴿أَمْ

عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٧]، ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وتتدفق الآيات كالعسل المصفى، عذبةً سائغٌ شرابُها وهي تصف الله جل في علاه بالرحمة والودّ والكرم والمغفرة والحكمة والعلم والعطاء... مكررةً القول، بين لحظة وأخرى، من بدء كتاب الله حتى منتهاه...

ثم أين نذهب بالأحاديث القدسية المترعة بلمساتها الوجدانية، وهي تتحدث عن رحمة الله بعباده، وتقرّبه إليهم... ووقوفه إلى جانبهم... وإعانتهم على مواصلة الطريق: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»!! «**من أتاني يمشي أتيته هرولةً!!**» «**حتى صرت يده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها!!**» «**يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلّا من كسوته، فأستكسوني أكسكم، يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم...**»...

يا الله... ألى هذا الحدّ يا رب العالمين!.. يا جبار السماوات والأرض... يا من إذا أردت شيئاً أن تقول له كن فيكون!.. ألى هذا الحدّ من التعاطف المدهش مع عبادك الذين خلقتهم بيديك، وسوّيتهم قائمين... ونفخت فيهم نفخة الحياة فصاروا بشراً أسوياء؟!

ألى هذا الحدّ الذي تصير فيه ـ وحاشاك يا رب العالمين ـ يده التي يضرب بها ورجله التي يمشي بها بين الناس؟!

أية ثروة روحية هذه التي ينطوي عليها هذا الدين؟ وأية لمسات إنسانية تكتظ بها آياته وأحاديثه؟

هل يوجد في دين آخر على الإطلاق... عبور الفجوة هذه بين الخالق والمخلوق... بين الله ذي القوة المطلقة وبين عباده الضعاف المهازيل؟!

إنه التوازن المدهش في كتاب الله، ذلك الذي يعرض الوضع بطرفيه: القوة والجبروت والقدرة المطلقة والتوعُّد بالعقاب... ثم الرحمة والبرّ والغفران والمودة، التي تصل إلى هذا الحدّ الذي تعجز الكلمات عن التعبير عما ينطوي عليه من شحنات إنسانية وروحية...

فأين أولئك الغربيون من أتباع النصرانية، الذين يحتكرون العمق الروحي للدين ويريدون أن يقصروه على دينهم فحسب؟ أين أولئك الضالون ممن فُرضت عليهم حضارتهم المادية، وخنقتهم بالتكاثر بالأشياء والأموال... فراحوا يبحثون عن خلاصهم في كل دين إلّا في الإسلام... ورمت بهم شطحاتهم إلى الهند والصين علّهم يجدون في الهندوسية والبوذية ما يغذّي أرواحهم العطشى، ويخرجهم من الجفاف الذي يبّس عروقهم حتى النخاع؟

هنالك ـ أيضاً ـ تلك الآيات القرآنية المدهشة التي يصير فيها الله هو المدين والإنسان هو الدائن: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١]، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ

وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ [الحديد: ١٨]، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].

إن الله سبحانه وتعالى ـ ها هنا ـ يدخل طرفاً في معادلة المال لصالح الفقراء والمسحوقين، فيطلب من عباده الواجدين أن يقرضوه القرض الحسن، الذي سيضاعفه لهم لحظة تسديد الحساب في الدنيا والآخرة... فأيّ دين هذا الذي يصبح فيه الإله الواحد جلّ في علاه عوناً للإنسان، الضعيف، المسحوق، كدين الإسلام؟

وأي دين تولّدت في تاريخه الطويل جملة هائلة من الحركات الروحية التي أعلنت التجرّد عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، كهذا الدين؟

حيثما تلفتنا... حيثما أدرنا المنظور... وجدنا أنفسنا قبالة دين مترع بتفاصيله، وعروقه، وحلقاته كافة، بهذا البعد الروحي ـ الإنساني، الذي تخسأ كل الأديان والمذاهب الأخرى أن تبلغ عشر معشاره!



قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ

الدكتور عماد الدين خليل
وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً: الأعمال التاريخية

محور: المنهج والفلسفة:

١ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢ ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي ـ عمان).

٧ ـ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم ـ بيروت).

٨ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).

٩ ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

١٠ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

محور: السيرة والتراجم:

١١ ـ دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس ـ بيروت).

١٢ ـ كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

١٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم ـ بيروت).

محور: البحوث والدراسات:

١٦ ـ دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على

المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة - بيروت).

١٩ - الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر - دمشق).

٢٠ - خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٢١ - محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

محور: قضايا في التاريخ المعاصر:

٢٢ - ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٣ - لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٤ - أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٥ - مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٦ - الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٧ - أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة - بيروت).

٢٨ - مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر - دمشق).

٢٩ - أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

ثانياً: الأعمال الفكرية

محور: المنظور الإسلامي للمعرفة:

١ - أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٢ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

محور: المنظور الغربي للإسلام:

٦ ـ قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٨ ـ المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٩ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٠ ـ نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس ـ بيروت).

١١ ـ غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

محور: البحوث والدراسات:

١٢ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

١٣ ـ حوار في المعمار الكوني: وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

١٧ ـ كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

١٩ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (قيد النشر).

٢٠ ـ محاضرات إسلامية (قيد النشر).

٢١ ـ أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).

٢٢ ـ دراسات قرآنية (قيد النشر).

محور: المقالات الإسلامية:

٢٣ ـ آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢٤ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٧ ـ من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٨ ـ العالم ينتظر البديل (قيد النشر).

٢٩ ـ آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٣٠ ـ أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

ثالثاً: الأعمال الأدبية

محور: الدراسات الأدبية والفنية:

١ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر ـ القاهرة).

محور: التنظير:

٥ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٩ ـ من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

محور: النقد التطبيقي:

١٠ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١١ ـ في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٢ ـ في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

محور: الإبداع:

المسرحيات:

١٣ ـ المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ المغول (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٩ ـ خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٠ ـ العبور (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

الروايات:

٢١ ـ الإعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٢ ـ السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

٢٣ ـ مذكرات جندي في جيش الرسول (ﷺ) (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

القصص:

٢٤ ـ كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

الشعر:

٢٦ ـ جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

أدب الرحلات:

٢٨ ـ من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

أدب الحوار:

٢٩ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٣٠ ـ الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٣١ ـ لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

السيرة الذاتية:

٣٢ ـ السيرة الذاتية:

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد النشر).

٣٣ ـ من مذكرات طالب جامعي (قيد النشر).

الفهرست





آيات قرآنية تطلُّ على العصر

هذا الذي يجده القارئ بين يديه هو الكتاب الثاني عشر مما أنجزته عبر خمسين عاماً في فن المقال، ولكنه هذه المرة يختلف عن كتب المقالات التي سبقته، إنه من بدئه حتى منتهاه يتمركز في كتاب الله، ويتعامل مع آياته البيّنات تلك التي تؤكد قيماً ومواقف وملامح أصيلةً في بنية هذا الدين، وتعكس رؤية معاصرة للمفاهيم القرآنية التي أريد لها أن تكسر حواجز التاريخ وتطل على كل عصر...

ولهذا اخترت له عنوان (آيات قرآنية تطلّ على العصر) ... ليس – أبداً – بمعنى أن هناك بالمقابل آياتٍ أخرى لا تلامس هموم العصر وتحدياته، وإنما لأنني عبر قراءاتي المتواصلة في كتاب الله، اخترت هذه الآيات من بين العشرات والمئات والألوف، وإلاّ فإن كتاب الله كلّه، من بدئه حتى منتهاه، يطلّ على العصر وعلى كل عصر، متجاوزاً مقولات الجغرافيا والتاريخ ...

ففي هذا الدين ليس ثمة اكليروسية تقصر حقّ فهم النصّ الديني والتعامل معه على عدد محدود من رجال الدين، وإنما هو دين مفتوح، ينطوي كتابه على طبقات من المعاني التي ينبني بعضها على بعض، ويقوم بعضها على بعض، ومن حق المسلمين جميعاً، وقد أمروا بقراءته يوماً بيوم، أن يفهموا منه ما يقدرون على فهمه، فإن لهم بذلك أجراً، لكن فهمهم هذا ليس ملزماً للآخرين بأي شكل من الأشكال ...



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

